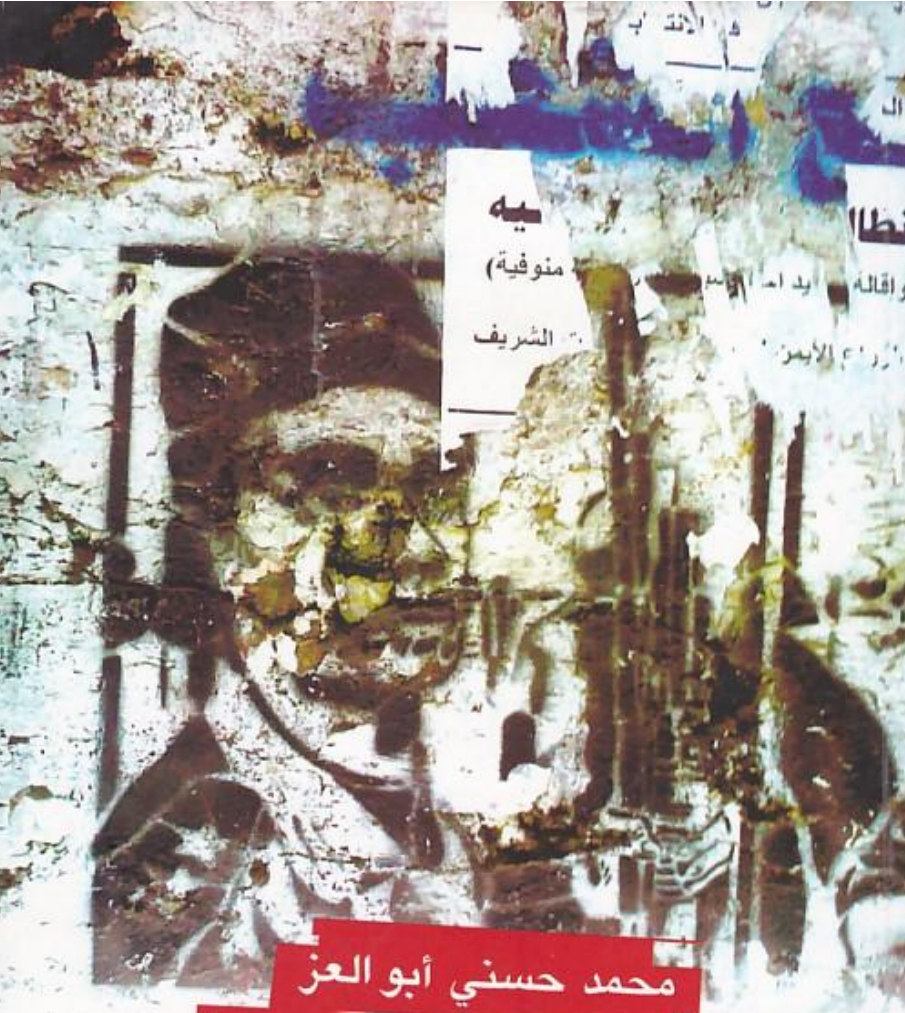

محمد حسني أبو العز

تعليمات سيادتك

ميريت

الطبعة 2

تعليمات سيادتك

تعليمات سيادتك
محمد حسنى أبو العز

الطبعة الثانية ٢٠١٥
(c) دار ميريت
٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
موبايل / ٠١١٤٢١٣٨٩٢٥
www.darmerit.com
info@darmerit.com

المدير العام: محمد هاشم

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٣٨٨٥
الترقيم الدولى: 978-977-351-682-6

محمد حسنى أبو العز

تعليمات سيادتك

دار ميريت
القاهرة ٢٠١٥

تنويه

جميع الشخصيات والمشاهد والوقائع
الواردة في هذا العمل، من وحي خيال
المؤلف.. وأي تشابه بينها وبين الواقع
هو محض صدفة!

إلى... "علي"

[^]

يبقى التاريخ بمثابة الشعلة التي تضيء لنا الطريق نحو المستقبل.. زادًا لا ينضب.. وطاقةً متجددةً تدفع للمضي على درب التقدم والنماء.

حبيب العادلي
خطاب عيد الشرطة
٢٣ يناير ٢٠١١

مدخل

الثلاثاء ١ فبراير ٢٠١١ – ميدان التحرير

يقف في طابور التفتيش الطويل المؤدي إلى داخل الميدان من شارع طلعت حرب، زائغ البصر، يرتعد من التوتر. يحمل في يده بطاقته الشخصية المكتوب فيها في خانة الوظيفة (ضابط شرطة – وزارة الداخلية)، مفكرًا في أي جنون أتى به إلى هنا!! فقد مرت عليه الأيام القليلة السابقة وكأنها دهر، وقد حدث فيها بالفعل ما لم يحدث في العمر كله، ولم يعد يحتمل ذلك الشعور بالخزي لعدم اشتراكه في صنع التاريخ، التاريخ الذي يُصنع الآن أمام عينيه وهو جالس في المنزل يخاف مغادرته، التاريخ الذي لم يره طوال حياته يتحرك خطوة واحدة، حتى ظن أنه قد مات، فإذ به ينفجر فجأة ثائرًا.. وفي وجه ماذا؟؟.. في وجه القهر الذي عانى منه طوال حياته!!..

يدوي الهتاف من داخل الميدان:

– الشعب.. يريد.. إسقاط النظام.

يقول لنفسه:

– أنا مثل هؤلاء.. منذ أيام قليلة كنت مقهورًا صامتًا، ويائسًا حد الموت.

يتصاعد الهتاف هادرًا:

– الشعب.. يريد.. إسقاط النظام.

يرتعد شاعرًا بمزيج من الرهبة والنشوة.. يقترب دوره فيتصاعد الدم إلى رأسه.. هذه المرة لن يقول: الرائد "محمد محمود"، فيقال له: "اتفضل يا باشا".. ولكنه هذه المرة صادق ربما لأول مرة في حياته، وهذا يكفيه، وليحدث ما يحدث.. وحين حان دوره أعطى الرجل الواقف للتفتيش بطاقته في هدوء، فبدت على وجه الرجل علامات الدهشة الشديدة، ونظر له وهو لا يدري ماذا يقول، فبادره قائلاً:

– أنا جاي علشان أشارك بس والله، زيي زي بقية الناس.

فرد الرجل مترددًا:

– معرفش بقى.. شوف الجيش لو هما يرضوا!

ثم التفت معطيًا بطاقته للجنديين الواقفين خلفه، هامسًا لهما:

– ضابط شرطة.. بيقول جاي يشارك.

ارتبك الجنديان بشدة من أثر الصدمة، ثم أخذ أحدهما البطاقة وجرى مهرولاً مختفيًا وسط الزحام، وأخذه الآخر من ذراعه نحو الدبابات وهو يتلفت حوله، ثم قال له منفعلاً:

– باشا.. خش جوه الدبابة.

– دبابة إيه يا ابني اللي أخش جواها؟!

فرد وهو يشير إلى إحدى الدبابات الواقفة:

– الدبابة دي.. لحد ما الظابط ييجي بس خش جوه الدبابة.

- يا ابني مش هاروح في حته والله.. أنا واقف معاك أهه.

- مش عشان حاجة والله العظيم ده عشانك إنت.. خش جوه الدبابة.

- يا ابني طيب بس...

- يا باشا الناس هنا لو عرفت إنك ظابط ممكن يموتوك. خش جوه الدبابة.

- ما حدِّش هايموتني ولا حاجه ما تخافش وبعدين ما حدِّش واخد باله أصلاً.. إنت كده اللي هاتخليهم ياخدوا بالهم.

- يا باشا أنا خايف عليك والله.. والنبي الله يكرمك خش جوه الدبابة.

- يا ابني ما تقلقش مش هايحصل حاجه.

- يا باشا خش جوه الدبابة أبوس إيدك.

وهنا.. حضر ضابط الجيش لينقذه من براثن ذلك الجندي الطيب القلب والغبي في نفس الوقت. كان ضابطًا برتبة نقيب، لم يسلم عليه ولم يتحدث معه، فقط سحبه من ذراعه مبتعدًا به عن الميدان، وهو يتلفت حوله في ذعر، ثم همس له أثناء سيرهما:

- يا باشا إنت ايه اللي جابك هنا بس؟

- أنا جاي أشارك والله العظيم زي بقية الناس.. مش جاي قاصد شر.

- يا باشا تشارك ايه بس؟! الناس هنا ممكن تموتك لو عرفت إنك ظابط.

- ما هو ما حدش هايعرف إن أنا ظابط.

- طب افرض قابلت حد تعرفه؟! دي مصر كلها هنا!!

ولم يتركه ضابط الجيش إلا بعد أن وعده بأنه سوف يغادر ولن يعود مرة أخرى.. فأعطاه بطاقته واعدًا إياه بأن هذا سيبقى سرًا بينهما، ثم سلم عليه بحرارة وعاد إلى خدمته مسرعاً.

وفي طريق مغادرته عبر شوارع وسط البلد، أخذ يتأمل الوجوه المتجهة إلى الميدان، كان فيها شيء غريب لم يره طوال حياته في وجوه الناس من قبل، كان من بينهم مشاهير، وكان من بينهم نجوم سينما، هؤلاء الذين كان يكفي قبل ذلك ظهور أحدهم في الشارع لتتوقف حركة المرور، وجدَهم يسيرون دون أن يلتفت إليهم أحد مطلقًا، فقد كانت أيامًا انطفأت فيها جميع النجوم، بينما لمع بشدة نجم واحد فقط: الشعب!

لم يكن يدري في الحقيقة إنْ كان ما فعله هذا تصرفًا شجاعًا، أم تصرفًا أحمق، ولكنه لم يهتم، فالمهم بالنسبة إليه أنه كان تصرفًا صادقًا وكفى.. ولم تنتبْه بعدها إطلاقًا أية مشاعر سلبية تجاه ما حدث، بل بالعكس لقد استراح؛ فقد شعر بأنه قد فعل ما عليه ولكن الله لم يُرد.. وأخذ بعدها يمارس دوره في مساعدة من في الميدان بتوعية من يعرفهم بأن من في الميدان على حق، وأن هذا النظام يجب أن يسقط:

– أنا أحد أفراد هذا النظام وأقول لكم: إن هذا النظام يجب أن يسقط.

مقدمة

لكاتب قصص الأطفال الشهير "هانز أندرسون"، قصة أشهر منه تدعى "البطة القبيحة"، تلك التي نطلق عليها نحن في ثقافتنا "البطة السودة"، وهي تحكي عن أوزة صغيرة تربّت بين مجموعة من البط، وظلت طوال حياتها تعتقد معذبةً أنها بطة قبيحة المنظر، غير عالمة بحقيقتها، وأنها ليست بطة قبيحة، بل إنها ليست بطة من الأساس، بل هي في واقع الأمر أوزة، وأنها ربما ليست قبيحة على الإطلاق. وذات يوم.. عندما أدركت تلك الحقيقة.. قررت هجر البط والانضمام إلى بني جنسها.

وكذلك هو... ظل طوال اثني عشر عامًا قضاها في العمل كضابط شرطة بوزارة الداخلية، لا يعلم الحقيقة، أو ربما قد علمها بداخله وتجاهلها، وربما قد علمها ولم يدرِ ماذا يفعل، أو لم يجد الشجاعة لكي يفعل.. حتى جاءت ثورة يناير، لكي تصدمه بتلك الحقيقة في وجهه واضحةً جلية، لا تقبل المواربة أو التجاهل، وهي أنه في الحقيقة ليس ابن البطة السودة.. فقرر حينئذ هو أيضًا هجر البط.. والبحث عمن يكون.

استغرق الأمر منه شهورًا بعدها، قضاها في حيرة من أمره، ما بين الأمل الزائف في انصلاح الحال، وبين الحرب عبثًا ضد محاولة إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه، تلك الحرب التي بدا له في النهاية أنه يخوضها وحده، وأنه الخاسر الوحيد فيها.. فتوجه في صبيحة التاسع عشر من نوفمبر من عام ٢٠١١ إلى لاظوغلي.. وقام بتقديم استقالته.

ظل أيضًا بعدها شهورًا يفكر في قصته.. يفكر في ما فعل، يفكر في ما رأى وسمع وشعر.. ويفكر فيما فكر.. حتى قرر أخيرًا أن يقص بعضًا من ذلك علينا.. فلعله يفيد.

وهنا ينتهي دوري (اللهم إلا من بعض الصياغة الأدبية).. وسوف أتركك معه، كي يقول لك ما يريد، كيفما يريد.. قد يعجبك ما سوف يقوله لك وقد لا يعجبك، قد تتفق معه أو تختلف، قد تضحك من كلامه وقد تغضب، قد تجده مهمًا أو تافهًا، وقد تصدقه أو لا تصدقه، إلا أنني أؤكد لك أنك في جميع الأحوال، سوف ترى معه الأمور من زاوية جديدة.

المؤلف

رجل المستحيل

"في البدء كان المستحيل.."

منذ صغري.. وأنا لدي ميول أدبية لا أستطيع لها فهمًا ولا توجيهًا، فقد كنت أحب قراءة الرواية والقصة القصيرة والمسرح والشعر، الأدب بشكل عام، بداية من مسرحيات شكسبير وانتهاءً بميكي جيب، وكنت أحلم دومًا أن أصير كاتبًا كبيرًا في أي مجال أدبي! صحيح أنني لم أستطع تحديد هذا المجال، ولم أستطع تحديد اتجاهي بالضبط، إلا أنه كان اتجاهًا أدبيًّا على كل حال، وكمعظم أبناء جيلي من الطبقة المتوسطة، لم أجد من يوجهني أو يساعدني أو حتى يهتم.

ورغم ميولي الأدبية الواضحة تلك، إلا أنه عندما جاءت الثانوية العامة أصر والداي على دخولي القسم العلمي، ومارسا عليَّ جميع أنواع الضغوط المعروفة، وحاولت عبثًا مرارًا وتكرارًا أن أوضح لهما أنني في العلوم الطبيعية والرياضية كالحمار يحمل أسفارًا، إلا أنهما -كمعظم أبناء جيلهما أيضاً- أبيا أن يفهما،

فكان الأهل جميعًا في ذلك الوقت يريدون من أبنائهم أن يصبحوا أطباءً أو على الأقل مهندسين، ولا أعلم لماذا على وجه التحديد كان هذا التوجه، ولا أعتقد أن هناك من يعلم، فلا الأطباء حالهم أفضل من غيرهم، ولا المهندسون.. ويعدين لو أصبحنا جميعًا في النهاية دكاترة، أومال مين اللي هايتعالج؟!

قال لي أبي ذات مرة:
- الأدبي ده بتاع العيال الفاشلة!
فقلت له:
- طب ما أنا فاشل!!

ورضخت في نهاية الأمر إرضاءً لهما، والتحقت بالقسم العلمي، متخليًا عن أحلامي، التي لم تكن واضحة على أي حال. وكان هذا هو الخطأ الأول.

فبعد عام من التخبط وعدم الفهم وممارسات المراهقة (الممتعة لي والمزعجة للآخرين)، فوجئ والداي بحصولي على مجموع ٦٠% في الثانوية العامة، وهو مجموع كما يعلم الجميع لا يستطيع أن يجعل مني "تومرجي"، فضلاً عن طبيب، وكان بالطبع يومًا أسود في تاريخي، إلا أنني قررت وقتها إعادة السنة، وقررت أن أعيدها في القسم الأدبي الذي أردت الالتحاق به منذ البداية.. ويا ليتني قد فعلت، فقد كان هذا هو الخطأ الثاني.

فكمعظم أبناء جيلي المنكوب في تلك الفترة من منتصف التسعينيات، قمت بالتقديم في الكليات العسكرية وكلية الشرطة، وكان ذلك بمثابة تقليد شائع يمارسه الجميع تقريبًا، فقد كان تأثير الحكم العسكري والدولة البوليسية طاغيًا، وكذلك كان تأثير الأفلام البوليسية والوطنية الرديئة، والمسلسلات الخيالية من قبيل "رأفت الهجان" و"جمعة الشوال" و"الثعلب"، وكذلك أيضًا كان تأثير رجل المستحيل وملف المستقبل والشياطين ال١٣ والمكتب رقم ١٩ (أو ١٦ مش فاكر) وع×٢ والمغامرين الثلاثة والمغامرين الخمسة، منهم لله جميعاً.. وخاصة الدكتور نبيل فاروق سامحه الله.

فقد كنت أتخيل نفسي أثناء تقديم الأوراق أنني أصبحت ضابطًا من الطراز الأول.. يجيد جميع فنون القتال، من الكاراتيه إلى التايكوندو إلى المصارعة والملاكمة والجودو والسومو والنينجا... يجيد التحدث بجميع اللغات، الحية منها والميتة.. يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من الإبرة إلى الصاروخ... يمكنه التنكر في أي شكل يريد: رجل مسن، امرأة حسناء، أو حتى طفل رضيع.. يستطيع تقليد جميع الأصوات بمهارة فائقة، بداية من صوت مدير السي آي إيه ومدير الكي جي بي والسي بي سي، وحتى صوت أم كلثوم.. يستطيع قيادة جميع أنواع السيارات والموتوسيكلات والدبابات والطائرات والغواصات والتريلات.. تتهافت عليه الجميلات من كل صوب، إلا أنه يحب ضابطة زميلة له، فتاة سمراء جميلة تدعى "منى"، وتهيم هي به حبًا، ولكنها للأسف ترفض الزواج منه بسبب كثرة الطلقات التي أصابت جسدها

فشوهته عبر خدمتها، فما كان منه إلا أن فقد الذاكرة، وقام بالزواج من ضابطة في الموساد الإسرائيلي فائقة الجمال تدعى "سونيا جراهام"! كان هذا بالطبع قبل أن أكتشف أن الفيلم مافيهوش نسوان أساسًا!!

وهكذا قمت بتقديم أوراقي ونسيت الأمر تمامًا، وانهمكت في المذاكرة للعام الجديد المعاد.. وفي ذات ليلة من الليالي.. جاءني اتصال تليفوني من أحد الأصدقاء يهنئني فيه بالقبول في كلية الشرطة، ويخبرني بأنه: نعم، قد ظهرت النتيجة.. وبأنني الوحيد في الشلة الذي قُبلت! انتابتني وقتها مشاعر كثيرة متداخلة وسريعة، لم أميز من بينها سوى الشعور بالدهشة.. فلم أكن أتوقع على الإطلاق قبولي في الكلية بنحافتي تلك، وجسدي الهزيل، ومنظري الوديع، والذي صار فيما بعد مثار دهشة كل من يعرف أنني ضابط شرطة!

علمت فيما بعد أنها "الواسطة".. فقد كان أحد أعمامي على صلة صداقة بأحد "الأشخاص المهمين"، فكلمه بشأني، فتوسط لي، فقبلت... ولا يسعني هنا سوى شكر كلٍّ من أبي وعمي، فقد كانا على كل حال لا يقصدان سوى تأمين أي مستقبل للابن الفاشل المتعب.

وحين وجدت نفسي وقد قُبلت في الكلية، لم أستطع مقاومة الإغراء، فقد كنت عيّلاً ساذجًا، خاصة بعد أن رأيت فرحة أبي بي

لأول مرة (تقريبًا منذ فرحته بولادتي)، والغريب أنها كانت فرحة على شيء لم أنجزه بنفسي!

وهكذا تخليت على الفور عن حلمي بأن أصبح كاتبًا كبيرًا، واستبدلته بوهم رجل المستحيل! وكان هذا هو الدرس الأول لي في حياتي: "ألا تستبدل حلمك أبدًا مهما بدا خياليًّا بعيد المنال، بوهم حتى وإن بدا حقيقيًا قريبًا.. فالسراب لا يفضي إلا إلى المزيد من الصحراء".. وقد كان درسًا ثقيلًا، دفعت ثمنه من عمري وشبابي وعقلي وروحي ما ليس بالقليل.

بعد إذن شاويش العنبر

"أمي، أمي، أمي
أمي ويروحي أفديها
داري، داري، داري
داري ويعمري أحميها
وعينيا السهرانين
عينيا السهرانين
شمعة تنور لياليها"

الفنان محمد ثروت

لم تكن رؤيتي لكلية الشرطة، ولوزارة الداخلية بشكل عام، تتعدى هذه الأغنية الظريفة الخاوية من الدلالات، فلم يكن هناك أحد من القريبين مني يعمل في الشرطة، ولم يسبقني أحد أعرفه إلى الالتحاق بالكلية، وهكذا كنت (داخلها عمياني)، لا أعلم عنها شيئًا، وكان تصوري وقتها لضابط الشرطة أنه (حاجه كبيره أوي)، فلم أكن أتخيل أبدًا ما يحدث له بالداخل.

فما أذهلني فيما وجدته ليس المجهود المفاجئ غير المعتاد، وليس صعوبة الحياة وخشونتها، وليس النظام الصارم الرتيب، فكل هذا متوقع ومفهوم بشكل أو بآخر، ولكن ما أذهلني بشدة هو تلك الأمور الغريبة التي تبدو في البداية بلا معنى.. فمثلاً.. منذ دخولك الكلية، وطوال السنوات الثلاث الأولى، لا تستطيع دخول العنبر الذي تقيم فيه، إلا بعد أن ترفع عقيرتك إلى السقف وتعوي كالمجذوب قائلاً: "بعد إذن شاويش العنباااااار"، هذا وإلا سوف ترى من الويل ما لا قبل لك به، وشاويش العنبر هذا الذي تستأذنه، ما هو إلا طالب في السنة الرابعة، ظل يُقهَر هكذا طيلة ثلاث سنوات، حتى جاء دوره في أن يقهر غيره، وهكذا حتى يصبح القهر أمرًا عاديًا بالنسبة إليه.. وعلى غرار هذه التفصيلة الكثير والكثير... يقولون إنّ هذا لكي تصبح رجلاً، ولكنني لا أدري ما الرجولة في ذلك؟! يقولون إن هذا من أجل الصبر والتحمل ولكن ليس للصبر أيضًا علاقة بالموضوع.. ولم أفهم الغرض من هذا الأمر إلا بعد فترة طويلة.. وكنت أتساءل دائمًا: أي شيطان اخترع مثل هذه الأشياء؟!

ثم علمتُ بعد ذلك فيما علمت أن مثل هذه الأمور من مقتضيات التربية العسكرية.. وهدفها في الأساس أن يربى الضابط منذ صغره على احترام من هو أقدم منه في التسلسل العسكري، وإتباع تعليماته بدقة دون مناقشة أو تردد أو تفكير.. ولكن السؤال الذي يثور هنا.. هل كلية الشرطة كلية عسكرية؟! هل مؤسسة الشرطة أصلاً مؤسسة عسكرية؟ وإذا كان ضابط الشرطة

يُربَّى بهذه الطريقة على التنفيذ الصارم للتعليمات، فما فائدة القانون الذي يدرسه طوال أربع سنوات داخل الكلية؟! ولماذا يربى أصلاً ضابط الشرطة على التسلسل العسكري واتباع التعليمات؟! هو هايحارب؟!!

الأمر الثاني الذي تتعلم إياه في كلية الشرطة هو الكِبر.. فأنت رغم أنك مقهور داخل أسوار الكلية، إلا أنك خارجها باشا.. أفضل من الجميع.. هكذا يقولون لك.. بطريقة مباشرة أحيانًا وكثيرًا بطرق غير مباشرة.. فهم لا يعوضونك نفسيًّا عما يحدث لك في الداخل بفكرة أنك "طالب مقاتل"، يتم إعدادك للحرب دفاعًا عن الوطن (مثلما يحدث في الكليات العسكرية)، ولكنهم يعوضونك بفكرة أنك خارج هذه الأسوار "باشا".. فتجد نفسك تلقائيًّا تخرج النقص والكبت الذي تعانيه في الداخل، على خلق الله في الخارج.. تتعلم ألفاظًا جديدة عليك مثل "سعادتك"، "سيادتك"، "يا باشا"!! تقولها في الداخل، فتقال لك بالمقابل في الخارج.. وهكذا.. تظل على هذا الحال المتناقض بين قهر الداخل وكبر الخارج حتى تحال إلى المعاش، أو حتى تستقيل، أو حتى تتوفى.

وتغرس هذه الأشياء بداخلك وأنت ما زلت بعد مراهقًا، في السادسة عشرة، أو السابعة عشرة من عمرك، لم يكتمل نموك ولا نضجك بعد، فتصبح بعد ذلك جزءًا من تكوينك لا ينفصل عنك، وتصبح بالنسبة إليك بديهيات، تندهش وتستنكر من يرفضها أو يستنكرها، وهذا هو تفسير سلوك ضباط الشرطة المتعالي الذي

يستنكره الكثيرون، دون أن يفهموا أنه سلوك تلقائي، يخرج من الضابط رغمًا عنه، فإنه لا يملك أن يسلك غيره، ولا يرى فيه شيئًا غريبًا، بل إنه في الواقع يستنكر ويتعجب ويغضب إذا وجد الطرف الآخر يرفض منه هذا التعالي أو يستنكره، ولا يستطيع أن يداري هذا السلوك سوى الضباط الذين يتمتعون بالذكاء الشديد، وهم قلة، ولا يستطيع التغلب عليه سوى الضباط الذين حباهم الله بالبصيرة، وهم أقل.

(الطريف أنك في المقابل لا تتعلم أشياءً تحتاجها بالفعل، بل وتحتاجها بشدة، فأنا حتى الآن مثلاً لا أجيد السباحة!! وهم للحق حاولوا تعليمي ولكنهم فشلوا).

ومن الجدير بالذكر أنه بعد الثورة، وجدت الناس في وسائل الإعلام يتحدثون بلا وعي عن ضرورة تغيير المناهج في كلية الشرطة، على اعتبار أنها هي المشكلة، ويرددون هذا دومًا دون فهم، فكنت أتعجب، هل يعتقدون حقًّا أن المشكلة تكمن في المناهج؟! هل يعتقدون مثلاً أن هناك مادة تدرَّس في الكلية اسمها: "مقدمة في التعذيب"، أو "الضرب في أقسام الشرطة"، أو "فن الكهرباء"، أو مادة "الشعب الكلاب"!! أو أن هناك معجمًا يوزَّع علينا اسمه "قاموس مصطلحات الوقاحة"!! والغريب أن من بين هؤلاء ناس عاقلون وكمّل، ومن بينهم خبراء وأساتذة كبار، وهم بذلك لا يختلفون كثيرًا عن أولئك السذج، الذين يسألون دومًا ذلك السؤال المستفز:

- هما بيعلموكوا في الكلية قلة الأدب؟؟

صحيح أن المناهج بالفعل تحتاج إلى تغيير، ولكن لنفس الأسباب التي تحتاج من أجلها جميع المناهج في المنظومة التعليمية المصرية بأكملها إلى تغيير، فالمناهج في كلية الشرطة - مثل كل المناهج في مصر - ليس لها علاقة بالواقع، أما المشكلة الحقيقية، فليست في المناهج، بل فيما يُربَّى عليه الضابط، وفيما يغرس في نفسه وعقله منذ الصغر.

أذكر ذلك المشهد ولا أنساه - ولا أدري لماذا - مشهد مدير الكلية وهو يتفقد الطلاب في الطابور الصباحي، ممتطيًا صهوة جواده العملاق.. كنت أرتعد رعبًا إذا ما مر بجانبي، ليس خوفًا من أمر معين، ولكن خوفًا منه شخصيًا، ومن طلته المهيبة، فكنت أشعر أنه إذا ما صدرت مني أقل حركة أثناء مروره بجانبي فإنه سوف يخرج كرباجًا من طيات ملابسه، ويلسوعني به حتى يطرحني أرضًا، ثم يربطني في حصانه ويسحلني وراءه مثل فيلم "الأرض" بدون مبرر.. فقد كانت مجرد فكرة أن يحدثك مدير الكلية بنفسه فكرة مهيبة! والمثير أن هذا الرعب يظل ملازمًا لك طوال حياتك تجاه قياداتك، مهما بلغت درجة هيافتهم، والأكثر إثارة أنك تجد نفسك بعد ذلك تلتذ برعب الناس منك على نفس المنوال!!

ومن القصص الجديرة بالذكر أيضًا في فترة الكلية، أنني أثناء فترة المستجدين، وهي تلك الفترة الأولى التي تمتد لـ ٤٥ يومًا

متواصلة. صحوت ذات يوم فوجدت ألمًا فظيعًا في أذني اليمنى، ووجدت سائلاً لزجًا يسيل منها، كما وجدتني لا أسمع بها تقريبًا، فذهبت إلى مستشفى الكلية، فكشفوا عليَّ ثم أعطوني "فلورست"، و"الفلورست" – لمن لا يعلمه – كان هو الدواء الرسمي للبرد وقتها، مثل "الكونجيستال" الآن، وبالطبع لم يفعل شيئًا، ذهبت أكثر من مرة، وفي كل مرة ليس سوى "الفلورست".. وبعد انتهاء فترة المستجدين وخروجي للإجازة، ذهبت إلى الطبيب فأخبرني أنني أعاني من شرخ في طبلة الأذن! وأنه كان من الممكن أن يتحول إلى ثقب، وأن يتسبب لي في عاهة مستديمة لولا ستر الله، وقضيت إجازتي الأولى كلها في العلاج.. سكت الجميع عن حالتي، وهذا لم يكن له معنى سوى أنني لم أكن لائقًا طبيًا لدخول الكلية من الأساس، فقبل التقديم أخبرني الطبيب بأنني أعاني من مشكلة في الأذن سوف تمنعني من الالتحاق بالكليات العسكرية وكلية الشرطة، وبالفعل خرجت من اختبارات الكلية الحربية (التي لم يكن لي واسطة فيها) غير لائق طبيًا، وبنفس المشكلة في الأذن التي أخبرني عنها الطبيب.. كانت ربما إشارة من الله لم أتسلمها وقتها.. فالواسطة مثلما تظلم من يستحق بحرمانه من مكانه المناسب له، فإنها أيضًا تظلم صاحبها بوضعه في مكان غير مناسب له.

وهكذا... فبعد دخولي الكلية شعرت بأنني قد ورطت نفسي فيما لا قِبل لي به، إلا أنني هذه المرة أيضًا رضخت، ورغم أنني عرفت على الفور أن هذا ليس مكاني، وأنني لا أنتمي إليه بحال،

إلا أنني رضخت، كنت أريد أن أثبت شيئًا لأهلي ربما، للمجتمع ربما، لنفسي ربما، لا أعرف!! المهم أنني في النهاية رضخت، ومثلي مثل كل زملائي تعلمت القهر والكِبر والخوف والقانون وعلوم الشرطة والرماية والتايكوندو وركوب الخيل، ومثلي مثل أغلبهم لم يلازمني من هذه الأشياء بعد التخرج سوى القهر والكبر والخوف، ونسيت الباقي بالطبع.. ولم أتعلم السباحة!

"العادلي" أساس الملك

في ذات ليلة من ليالي نوفمبر الحزينة، وأنا في السنة الثالثة في الكلية، جاءنا خبر حادث الأقصر المشئوم، متبوع بخبر إقالة اللواء "حسن الألفي" وزير الداخلية آنذاك، وتعيين اللواء "حبيب العادلي" مدير مباحث أمن الدولة خلفًا له.

بس... وعنها.

مكث "حبيب العادلي" في موقعه كوزير للداخلية ثلاثة عشر عامًا، وهو رقم قياسي لم يسبقه إليه أحد من العالمين، ولم يكن هناك من يتوقع أن هذا الرجل – الذي يشبه بقُصته وشاربه المحفوف بعناية نصابي الأفلام القديمة – سيمكث كل هذه الفترة، وبالتأكيد لم يكن يتوقع أحد أنه سوف يفعل كل ما فعله، ولم يكن يتوقع العرافون ولا المنجمون ولا حتى الجن الأزرق أنه سوف ينتهي مثل هذه النهاية.

وقد سبق العادلي إلى منصبه العديد من الوزراء، لم أحضر

في فترة عملي منهم أحدًا، إلا أنني عملت مع من عاصروهم، وسمعت عنهم الحكايات.

سمعت عن "أحمد رشدي"، ذلك الوزير الذي نجح إلى حد كبير في القضاء على تجارة المخدرات في البلاد.. والذي انتهت فترة ولايته نهاية مؤسفة بأحداث الأمن المركزي الشهيرة، تلك الأحداث التي تمرد فيها جنود الأمن المركزي تمردًا عشوائيًا، بعد أن سرت بينهم إشاعة تقول إن الوزارة سوف تمدد فترة تجنيدهم إلى خمس سنوات بدلاً من ثلاث، فما كان منهم إلا أن خرجوا إلى الشوارع مدججين بالسلاح عاملين على إثارة الشغب، وكاد الأمر أن يتحول إلى ثورة حقيقية - خاصة بعد أن بدأت بعض فئات الشعب المطحونة في الانضمام إليهم - لولا أن تدخلت قوات الجيش ضدهم بعنف شديد، وكانت هنالك معارك ضارية (أذكر أنني سعدت جدًا بهذه الأحداث عندما كنت طفلاً صغيرًا لأنها تسببت في إعطائنا إجازة من المدرسة، أذكر كذلك انتشار مدرعات الجيش في الشوارع، والتفتيش المحموم، وحظر التجول).

سمعت أيضًا عن "عبد الحليم موسى"، ذلك الوزير الذي يطلقون عليه لقب "شيخ العرب"، ولم أقف على سبب هذه التسمية تحديدًا، ربما لأنه كان يميل إلى حل المشاكل على طريقة المجالس العرفية (قعدة العرب)، وربما فقط لأنه كان بيصلي ويتاع ربنا.

وسمعت كذلك عن "حسن الألفي" - الذي التحقت بالكلية في

عهده – ذلك الوزير الذي قضى فترة ولايته في الحرب على الإرهاب، والذي كان يفتخر بكونه الوزير الذي استطاع أن يقضى على الإرهاب في مصر، فكان من مفارقات القدر أن تكون نهايته على يد أسوأ حادث إرهابي ربما في تاريخ الإرهاب في مصر.

ولكن أهم ما لاحظته في حديث الضباط الأقدم مني عن وزراء الداخلية، أنهم لا يذكرون أحدهم بذلك الحب وذلك التقدير وذلك التبجيل الذي يذكرون به "زكي بدر"... الأسطورة!! ذلك الوزير الخطير الشرس المرعب (إللي كان بينيم البلد من المغرب..)، ذلك الوزير الذي ضرب أحد أعضاء مجلس الشعب ذات مرة في أحد الجلسات جهارًا نهارًا بالحذاء على أم رأسه.. ذلك الوزير سليط اللسان الذي تُروى عن قوته وجبروته روايات كثيرة مرعبة. تجد دومًا تلك النظرة الحالمة في أعينهم عندما يأتي ذكره، وتشعر عندما يتحدثون عنه أنهم ينتظرون بعثه وعودته من جديد لكي يخلصهم، بالضبط كما ينتظر اليهود المسيح المخلص، أو كما ينتظر المسلمون المهدي المنتظر، ويكفي إن أردت أن تفهم كيف يفكر ضباط الداخلية بشكل عام، أن تطلب من أحدهم أن يحدثك عن "زكي بدر"... الأسطورة!!

أما حبيب العادلي...

فهو ذلك الوزير الذي كان يستيقظ مبكرًا، لكي يمارس رياضة المشي مع نساء المجتمع الراقي في تراك نادي الجزيرة، ثم يذهب

إلى الوزارة مباشرة ليقرأ تقارير التفتيش، ثم يغادرها بلا عودة في تمام الثالثة عصرًا.

ذلك الوزير المزواج، الذي تزوج أكثر من مرة أثناء فترة ولايته رغم تجاوزه السبعين! ومن بينها زيجته الشهيرة من طليقة أحد الملياردريرات الهاربين، تلك الزيجة التي لو فعلها أحد من ضباطه لعلقه من قدميه، واصفًا إياه – متأففًا – بالحرامي!

ذلك الوزير الذي كان يذهب كل أربعاء إلى منتجع العين السخنة حاملاً ابنه ذا الأعوام الثلاثة على قدميه، ولا يعود إلا في مساء الجمعة، لاطعًا قدرًا لا بأس به من الشنبات في تشريفة له ذهابًا وإيابًا.

ذلك الوزير الذي ابتدع إدارة كاملة مهمتها فقط تأمين خط سيره من المنزل إلى الوزارة، لا يعمل بها إلا المحظوظون (تسأله: سيادتك شغال فين؟ يقولك بفخر شديد: في خط سير الوزير!).

ذلك الوزير الذي جعل شعار المرحلة: "أمن الدولة فوق الجميع" و"لا صوت يعلو فوق صوت التسجيلات"، فوضع الشرطة في حالة عداء مع الجميع.

ذلك الوزير الذي بنى دولة داخل الدولة، بل جعل من داخلها ولايات يولّيها مساعديه، مثل أحد مساعديه الذي كان رئيسًا

لجمهورية المعادي.

ذلك الوزير الذي فرَّغ وزارته من كل كفاءة، ومن كل نزاهة، ومن كل إخلاص، ومن كل معرفة وفكر.

ذلك الوزير الذي لخبط حال ضباطه وأفراده حتى صاروا لا يعرفون لأنفسهم رأسًا من قدم، وانحط بمستواهم الفكري والعملي إلى أدنى المستويات، حتى صاروا مثار سخرية الجميع وهم لا يشعرون.

ذلك الوزير الذي حول أمن المواطنين إلى تمثيلية كبيرة، لو قام بها مجموعة من الممثلين والكومبارس، بدلاً من الضباط والأفراد، لصارت أفضل وأوقع بكثير.

ذلك الوزير الذي لم أره وجهًا لوجه على الإطلاق طوال اثني عشر عامًا.. ولم أسمع عن ضابط قد استطاع أن يقابله أو يتحدث معه ولو مرة واحدة، فقد رسم من حول شخصه هالةً، يخاف أن يقترب منها أحد كي لا يحترق، وكانت تأشيرته على الورق بمثابة أمر إلهي منزَّل، يقرأها الجميع في خشوع وانبهار.

ذلك الوزير الذي قامت ضده (شخصيًّا) انتفاضة ٢٥ يناير، والتي تحولت (بسببه أيضًا) إلى ثورة عارمة أسقطت النظام بأكمله.

كان شعار وزارة الداخلية طوال تاريخها: "الشرطة في خدمة الشعب"، حتى جاء "حسن الألفي" فأراد أن يضع التاتش بتاعه فغيره إلى: "الشرطة والشعب في خدمة الوطن"، ثم جاء من بعده "حبيب العادلي" ليجعله: "الشرطة والشعب والوطن في خدمة الريس!!".

دفتر إيصالات

مشهد :
ديسمبر ٢٠٠٠ - طريق الكورنيش - الأقصر

واقف بجوار معبد الأقصر في تلك المنطقة التي يطلقون عليها "ميدان مرحبا" (رغم أنها ليست ميدانًا) مستمتعًا بأشعة الشمس الدافئة، منتشيًا سارحًا في ملكوت الله. أتأمل المنظر الطبيعي المريح للنفس، الذي أراه أمامي في الجهة المقابلة في البر الغربي.. يقطع من آن لآخر أحد السياح تأملاتي ليسألني عن الطريق باعتباري البوليس (فالأجانب يثقون في البوليس) فأجيبه بلغتي الإنجليزية المتواضعة، ثم أعود لتأملاتي وسرحاني مرة أخرى.. يأتي صوت المقدم "عبد الوهاب عطوة" وكيل المرور، من جهاز اللاسلكي في جانبي:

- محمد بيه محمود.

الملازم أول محمد محمود

السيد الملازم أول محمد محمود.

ربت أحدهم على كتفي من الخلف، نظرت فوجدته

"عبد الموجود" السائق المدني لونش المرور، بشاربه الكث، وهيئته المبعثرة، مبتسمًا كاشفًا عن أسنانه المتهدمة:

- الجهاز عاينادي عليك يا أبويا.. إنت ماسامعشي؟!

انتبهت لصوت المقدم "عبد الوهاب عطوة" القادم من اللاسلكي:

- الملازم أول محمد محمود.

- ابدأ الإشارة.

فجاءني صوته عبر الأثير متنهدًا:

- يا محمد بيه متابعة الجهاز لو سمحت.

- معذرة سيادتك أصلي أنا كنت باسحب رخصة بس.

- طيب... الإفادة بالنسبة لمجهود الحملة

- حتى الآن سعادتك (يعني: لسه).

فرد بنفاد صبر:

- حتى الآن إيه؟

- حتى الآن من عدمه (يعني: مفيش).

- طيب محمد بيه عايزين نشد حيلنا شوية... السيد مدير الأمن بيسأل عن مجهود الحملة.

- جاري سيادتك حاضر.

- مع الشكر.

أشرت لعبد الموجود أن هيا، ثم ركبت الونش بجواره، فسألني:

- على فين عاد؟

- اطلع على "أبو الجود".

- عانعمل إيه في "أبو الجود"؟
- هانعمل حواجبنا.
- بَه!! عانعمل حواجبنا كي يعني؟!!
- هانعمل حمله يا عبموجود.. هانعمل حملة.. يعني إنت ماسمعتش؟!
- يجطع الحملات وسنين الحملات.. هما ماعايزهجوش م الحملات؟؟
- لا ماعايزهجوش.

لاحظت في الطريق الأمين "علي" (وهو أمين حديث التخرج) منهمكًا في مشاجرة كلامية حامية مع سائقي عربات الحنطور، وما إن رآني حتى أقبل مسرعًا:

- يا باشا العالم بنت الوسخة دي طلعت ميتين أمي.
- اركب يا "علي".
- على فين؟
- "أبو الجود".
- بس أنا "عبد الوهاب" بيه قالي أقف هنا.
- ماتقلقش لو سأل عليك أنا هاقله إنك معايا.
- بس ساعدتك "عبد الوهاب" بيه لو عدّى ومالقا...
- ماتقلقش يا علي.
- يا باشا أص...
- اركب يا "علي" ماتطلعش عين أمي... اركب يا بابا... اركب يا حبيبي.

وهنا تدخل "عبد الموجود":

- ماتركب يا أبويا ماتوجعش راسنا... إحنا عانتحايلوا عليك إياك؟!

فرد "علي" عليه منفعلاً:

- وإنت مال أهلك إنت؟! أنا باتكلم مع الباشا.

فقلت له مفقوعًا:

- اركب يا علي خلصنا.

- علشان خاطرك إنت بس يا باشا.

- متشكر يا حبيبي... يا أمير.

فقال "عبد الموجود" مغمغمًا:

- عيل عِلج.

وانطلقنا جميعًا إلى "أبو الجود"... و"أبو الجود" هي منطقة لتجمع سيارات الميكروباص وسيارات النقل التي تقوم بتحميل الركاب، تلك التي يطلق عليها في الصعيد سيارات "الكَبّوت"، ونظرًا لأن مجلس المدينة لم يقم بتوفير موقف لهذه السيارات، فإن هذه السيارات تعتبر مخالفة لتحميلها من خارج الموقف.. (رغم إن مافيش موقف!).. كما أنها حافلة بمخالفات التراخيص نظرًا لعدم قدرتهم غالبًا على تسديد كم المخالفات الكبير الذي يحرر لهم عادة، كما أنها أيضًا رخص غلابة، ورخص الغلابة لا ترد ولا تستبدل، بعكس رخص الملاكي التي سوف يكلمني عنها "فلان" بيه رئيس المباحث، و"علان" بيه صديقي، والأستاذ "ترتان" مدير شركة السياحة الذي لا يرفض لي طلبًا، وسوف أجد نفسي في نهاية اليوم داخلاً على مدير المرور خالي الوفاض، أما الغلابة

فغلابـة.. لا يعبرهم أحد، ولا يتصل من أجلهم أحد... وباختصار فإن منطقـة "أبو الجود" هي المكان الأمثل لسحب أكبر كم من الرخص في أقل وقت ممكن...

وصلنا فنزل ثلاثتنا من الونش، وهجم كل منا أوتوماتيكيًا على سيارة.. اختطفت الرخصتين من السائق وعدت إلى الونش مسرعاً.. لحق بي السائق أثناء كتابتي للإيصال، بينما لحق بي "عبد الموجود" و"علي" برخص السائقين الآخرين، ثم عادا ليأتيا بالمزيد... قال السائق الأول:

- إيه باشا.. فيه إيه؟

- موقف عشوائي.. ما أنت فاهم.

حضر كل من السائق الثاني والثالث، فقال الثاني:

- إيه يا باشا عاد؟

تجاهلته.. فقال له السائق الأول:

- عايجولك موجف عشوائي.

فرد:

- موجف عشوائي كي بس؟!

استمررت في تحرير الإيصال فقال لي السائق الثالث:

- ماجولنا ميت مرة يا باشا لمجلس المدينة يعملوا لنا موجف عاد.

فقلت له مسلمًا الإيصال إلى الأول:

- أنا مش مجلس المدينة.

فقال الأول ملتاعًا أثناء انصرافه بعد تسلام الإيصال:

- لا حول ولا جوة إلا بالله... عانجيبوا منين بس؟!

وحين شرعت في تحرير الوصل الثاني، وضع صاحبه يديه على يدي مانعًا إياي من الكتابة:

- يا باشا بالله عليك... علشان خاطر ربنا.

حضر "على" فوجد المشهد، فنظر للسائق شاخطًا فيه:

- شيل إيدك يا عم... إنت هاتمسك إيد الباشا واللا إيه؟

فقال السائق الثاني ساحبًا يديه:

- معلش يا باشا.. آني آسف... بس يا باشا والنبي دي عاتوكلوا يتامى.

أعطاني "على" ما جاء من أجله، وهي رخص سائقين آخرين:

- ده انتهاء رخصة التسيير، وده إيصال سحب منتهي لرخصة القيادة.

سلمت الثاني إيصاله، وبينما أكتب الإيصال الثالث، استعطفني الثاني رافضًا الانصراف:

- يا باشا عشان خاطر النبي... دي عاتوكلوا يتامى.

بينما قال الثالث وهو يرى إيصاله قيد التحرير:

- حسبنا الله ونعم الوكيل.

حضر كل من السائق الرابع والخامس، وحضر أيضًا "عبد الموجود" مسلمًا إياي رخصًا جديدة:

- باشاااا... واحده انتهاء خط التسيير، وواحده انتهاء الرخصتين.

استمررت في تحرير الإيصالات في آلية تامة، متجاهلاً

أصوات السائقين من حولي، والتي تردد دائمًا نفس الكلام:

- يا باشا اصبر بس.
- يا باشا هانلاحجوها منين واللا منين؟
- يا باشا علشان خاطر ربنا.
- والله العظيم دي عاتوكلوا يتامى.
- حسبنا الله ونعم الوكيل.

الإدارة العامة للجباية

في كتب التاريخ المقررة على مراحل التعليم المختلفة، كانوا عند ذكر نهاية كل دولة من الدول التي حكمت مصر على مر العصور، يذكرون دائمًا أسباب سقوط تلك الدولة، وأذكر من بين هذه الأسباب سببًا كان مشتركًا بين أسباب سقوط جميع الدول، وهو "فرض الضرائب الباهظة!".

وكانت تلك الضرائب الباهظة تفرض على الناس لأن الدولة كانت دائمًا في حالة إفلاس بسبب فساد وفشل الطبقة الحاكمة، وبالطبع فإن تلك الطبقة الحاكمة لا يهون عليها إنقاذ الدولة من أموالها التي نهبتها على مدار حكمها من الشعب، فلا يكون منها إلا أن تقوم بجمع الأموال (من الشعب برضه) لإنقاذ الدولة، وهذا تقريبًا ما كان يحدث في عهد "مبارك"، وكان أحد الأسباب الرئيسية في سقوط دولته.

وعلى مر العصور وتداول الدول، لم يتخذ جمع الأموال هذا شكلاً محددًا، وكذلك أيضًا في عهد "مبارك"، لم يكن جمع الأموال

من الشعب دائمًا في صورة ضرائب صريحة، وإنما كان يتخذ أشكالاً أخرى كثيرة، كانت أحد هذه الأشكال في عهد "مبارك" ووزيره "العادلي" هي المرور!

وفي الأصل.. بعد أن اخترع الإنسان السيارة، وبعد أن زاد عدد السيارات، اخترع الإنسان شرطة المرور، بهدف تسيير حركة السيارات، والحفاظ على سلامة الناس في الطريق بشكل عام، واتخذ في سبيل ذلك كل الطرق الممكنة التي من بينها عقاب من يتسبب في تعطيل الناس، أو من يرتكب مخالفة ما تهدد سلامتهم.. ولكن ما يحدث عندنا يتجاوز هذا بكثير.

ففور تخرجي تم تعييني للعمل بالمرور في إحدى مدن الصعيد الصغيرة الجميلة.. وهي مدينة "الأقصر"، وكان أمرًا نادر الحدوث أن يعين ضابط حديث التخرج في المرور، فالمرور يعد من الأماكن التي لا يعمل بها سوى من مر على تخرجهم عام على الأقل، وهذا من ضمن الأمور الغريبة التي تحدث في الحياة فلا تجد لها تفسيرًا أو معنى!! وكانت تلك المدينة بطبعها مدينة هادئة جدًا يصعب أن تجد بها أي مشكلات مرورية تذكر، ومع ذلك فقد كان كم الرخص المسحوبة والمخالفات المحررة يوميًا هائلًا، ولا يتناسب إطلاقًا مع الفراغ المروري بها .

وكان مما لفت انتباهي أمران:
الأمر الأول هو قانون المرور، الذي تشعر وأنت تقرأه أنه

أعد من أجل التلكيك وليس لهدف آخر... فبنود قانون المرور تحتوي على ما يخول لي سحب رخصة أي مواطن في جميع الأحوال، مهما كان حريصًا وملتزمًا، فمثلاً يمكنني سحب رخصك لأنك معلق سبحة في مرآة السيارة، أو صليب، أو حتى دبدوب، عن طريق مخالفة تسمى "معلقات"، أو مثلاً لأنك تضع على زجاج السيارة علامة النسر الجمهوري، أو ميزان نقابة المحامين، أو كأس وثعبان نقابة الصيادلة، أو حتى شعار النادي الأهلي، في مخالفة تسمى "ملصقات"، بل إنني يمكنني سحب رخصك لعدم تدوين رقم السيارة على طفاية الحريق! وعلى غرار هذا الكثير... وكان كل تعديل لقانون المرور يضيف مخالفات أكثر فأكثر: حزام الأمان، المثلث العاكس، شنطة الإسعافات، وغيره!

الأمر الثاني الذي لفت انتباهي، هو ذلك الإلحاح المحموم من قبل القيادات على ما يسمى بالمجهود (والمجهود هذا هو أحد كوارث الداخلية التي ربما أحدّثكم عنها بإسهاب فيما بعد)، فأنت مطلوب منك في نهاية كل يوم تدوين عدد الرخص التي قمت بسحبها طوال اليوم فيما يسمى بدفتر المجهود، وكان الضابط يقيم أولاً وثانيًا وعاشرًا وأخيرًا بمجهوده، أي بعدد الرخص التي قام بسحبها، وليس بأي أمر آخر، مما يعطيك انطباعًا أن الهدف من وجود إدارة المرور أصلاً هو جمع الأموال وليس إلا!

وجدير بالذكر أننا عندما كنا قد وصلنا إلى مرحلة صارت فيها رخص شعب الأقصر كلها تقريبًا مسحوبة، مما أدى بالطبع إلى

ضعف الإيراد، الأمر الذي أرق السيد اللواء مدير المرور وقتها وجعله لا ينام، حتى تمخض ذهنه في النهاية عن فكرة خبيثة، وهي أن وزع علينا ما يسمى بدفتر رسوم الونش، وهو دفتر قد خلق أصلاً من أجل إثبات تحصيل قيمة نقل السيارات (عند تعطلها) بونش المرور، أي أنه ليس دفتر مخالفات من الأساس، وكانت قيمة الوصل في هذا الدفتر وقتها على ما أذكر عشرين جنيهًا وخمسين قرشًا، وأمرنا أن نحرر وصلاً لكل من يرتكب أي مخالفة من أي نوع، في تحايل على القانون من أجل جمع الأموال، وأذكر أن هذا الأمر صار يدرُّ مبالغ طائلة، أكثر بكثير مما كان يدره سحب الرخص، وكان هذا قبل أن يقر قانون المرور فيما بعد الغرامات الفورية في أحد تعديلاته، وكنت في بداية هذا الأمر (من فرط خجلي وكسفتي) أشطب عند تحرير أي إيصال عبارة (إيصال رسوم نقل سيارة بالونش) وأدون مكانها المخالفة التي ارتكبها السائق، وعندما اكتشف مدير المرور أنني أفعل ذلك، صاح في وجهي غاضبًا:

- يخرب بيتك، هاتودينا في داهية!

أتذكر أنه عندما تم نقل أحد الزملاء من أصدقائي إلى العمل معنا في إدارة المرور قال لي:

- أنا عايزك بقا تفهمني باختصار كده إيه قصة المرور ده.

فوجدت نفسي أرد عليه دون تفكير قائلاً:

- يا عزيزي كلنا لصوص!!

نقلت بعدها بفترة وجيزة من المرور، ولم يزل صديقي هذا عالقًا به حتى الآن، بل ساقه القدر بعد أن انتهت فترة خدمتنا في الصعيد إلى مرور القاهرة، وما أدراك ما مرور القاهرة...

في آخر مرة قابلته فيها سألته:

- والمرور عامل إيه دلوقتي؟

فوقف واضعًا يديه حول فمه، وهتف مناديًا:

- اسحب ع التقيل... اسحب ع التقيل!

فلا حول ولا قوة إلا بالله...

فهمي

مشهد :
أكتوبر ٢٠٠٩ - مقهى سهراية - القاهرة الجديدة

أجلس أنا والضابط "هاني" والضابط "كريم" في حديقة المقهى، نشاهد فيلمًا لا أذكر ما هو على قناة "روتانا سينما"، يجلس "هاني" منجعصًا مادًا كرشه يدخن الشيشة في لامبالاة، بينما يقرض "كريم" أظافره متوترًا لسبب غير معلوم... يدخل علينا الضابط "فهمي" بقامته القصيرة، وزيه الرسمي المهندم دائمًا، وشعره المصبوغ بعناية لإخفاء سنين عمره التي قاربت الستين، والتي لا تتناسب مع رتبته (نقيب)، فهو من هؤلاء الضباط الذين كانوا في الأصل أمناء شرطة، والذين يطلق عليهم الآخرون من باب التعالي لفظ "تايوان" (أي غير أصلي)، رغم أنهم في حقيقة الأمر لا يختلفون عن الآخرين كثيرًا، هم فقط في الغالب يكونون أكثر خبرة وأكثر جبنًا في نفس الوقت، ولكنهم مثلهم مثل الآخرين منهم الشخصيات المحترمة ومنهم الشخصيات الزيالة، وكانت تبدو على "فهمي" علامات التأفف الشديد.. سحب كرسيًا وجلس

بجواري طالبًا شاي.. فسألته:

- ما لك؟؟

- مفيش.

- أومال متظرين كده ليه؟

- مفيش يا عم دي حاجه بنت وسخه.

- إيه في إيه بس؟

- الراجل الحكمدار ابن العرص بقالي شهرين بابني في المبنى الجديد بتاع الإدارة وييجي دلوقتي يعجبه يقوم واخده.

- واخده يعمل بيه إيه؟؟

- أنا عارف!! ده أنا بقالي شهرين بابني في الإداره دي علشان نتنيل نلاقي مكان نقعد فيه بدل الخرابة اللي قاعدين فيها.

لاحظ "هاني" أن هناك "تمرة ما" فتدخل في الحوار:

- هو فيه إيه؟

فقلت له:

- بيقوللك الحكمدار خد المبنى الجديد بتاع الإدارة.

فرد مندهشًا:

- خده يعمل بيه إيه؟

فقال له "فهمي":

- ماعرفش هايديه للمركبات باين واللا للدفاع المدني.

- طب هو مايعرفش يا فهمي إن إنت اللي باني المبنى ده واللا إيه؟

فرد "فهمي" في غضب:

- ده والنعمة دي (مشيرًا لكوب الشاي) ما دفعوا فيه ولا

مليم.. كله بالعلاقات، أنا اللي كلمت "..." بتاع شركة الأسمنت جاب الأسمنت، و"..." بتاع السيراميك جاب السيراميك و"..." بتاع الأدوات الكهربائية و"..." بتاع الأدوات الصحية، ده غير الطوب والرمل والزلط والعمال والصنايعية كل ده أنا اللي جايبه، المبنى ده ما اتدفعش فيه مليم أحمر.

فقال له "هاني" مستعبطًا:

- إيه ده؟!! لا والنبي؟!!

- يعني هو إنت مش فاهم؟! دي المديرية الجديدة دي كلها مبنية كده.. كله بالجهود الذاتية يا بيه.. كله على حساب صاحب المحل.

- طب وإنت جاي عليك بإيه ده كله يعني؟!

- وربنا ولا حاجه.

فتدخلت أنا سائلاً "فهمي":

- أومال بتعمله ليه؟!

فرد:

- بص يا محمد بيه.. أنا دلوقتي فاضل لي سنتين واطلع معاش.. عايز أعدِّيهم على خير وآخد معاشي وأغور في ستين داهية من وش الداخلية دي بقى خالص.. أنا خلاص كبرت ومابقتش حمل بهدلة.. وهما مابيرحموش. ما أنت فاهم.

دخل علينا أحد الأفراد مقاطعًا:

- محمد بيه العمليات بتنادي على سعادتك في الجهاز.

- عايزين إيه؟

- ماعرفش.

فقمت متململاً متجهًا إلى "البوكس" لأجد العمليات تنادي:

- السيد النقيب محمد محمود... السيد النقيب محمد محمود.
- ابدأ.
- مكان سيادتك الآن.
- المرور بخط السير!!

الذين هبطوا بالباراشوت

قال الحكيم الفرعوني "آني" موصيًا ابنه:

- "اتخذ من شرطي شارعك صديقًا لك ولا تجعله يثور عليك، وأعطه من طرائف بيتك حينما يكون منها في بيتك في أيام العيد، ولا تتغاضَ عنه وقت صلاته بل قل له: المديح لك".

في اللقاء المتكرر المعاد الملل لوزير الداخلية "حبيب العادلي" مع المحاور الجهبذ "مفيد فوزي"، وهو ذلك اللقاء الذي كان يجريه معه في عيد الشرطة من كل عام، سأله "مفيد فوزي" ذات مرة - أو ربما أكثر من مرة، أو ربما كل مرة - عن مرتبات الضباط والأفراد التي لا تكفي مرارة العيش، وعن خطورة عدم تناسبها مع ما في أيديهم من سلطة، فلم يفتح الله عليه سوى بهذه الإجابة المقتضبة المستفزة:

- القليل يكفي!!

وقيل إنه ذات مرة سُئل "زكي بدر" (الأسطورة) عن نفس الأمر، فرد بصوته المخيف الأجش قائلاً:

- جنيه الداخلية بميت جنيه!!

وهذان الردان السخيفان إنما يعكسان أحد أهم فلسفات العمل الأمني على مر العصور، وهي فلسفة "السحتجة"، أو "البرشتة"، أو "رمي الهلب"، أو "التكتيف"، أو "التظبيط" في أكثر وصف مهذب لها.

وكان "التظبيط" هذا هو أول شيء تعلمته على الإطلاق بعد تخرجي من الكلية، فأنت تجد فجأة - بعد أن كنت نكرة طوال حياتك - أن الكثيرين يحبون التقرب إليك، ويبالغون في احترامك وتقديرك، فتفرح جدًا، وتظن في البداية من فرط سذاجتك أنهم يحبونك من أجل شخصيتك الظريفة اللطيفة، ولكنك تكتشف بعد ذلك أنهم في الواقع يتقرَّبون لما لديك من سلطة، وهؤلاء يمكنك أن تطلق عليهم لقب "أصدقاء الشرطة"، أو بمعنى أصح "زبائنها"، وهم لا يخلو منهم زمان ولا مكان.

وزبائن الشرطة هؤلاء أنواع، فهناك من يتقرب من أجل مصالحه المباشرة، وهناك من يتقرب تحسبًا لأي أمر ربما يحتاجك فيه، وهناك من يتقرب لمجرد أن يتمنظر بك أمام العالم (أنا رحت مع محمد بيه، أنا جيت مع محمد بيه، أن كنت قاعد مع محمد بيه... وهكذا)، وهؤلاء جميعًا يشترط أن يكونوا أغنياء أو أنصاف أغنياء أو على الأقل كسِّيبة، فما حاجة الفقير إليك على كل حال، أو بمعنى أصح، ما حاجتك أنت إليه.

هذا وتتناسب نوعية الزبون تناسبًا طرديًّا مع نوعية المنصب، فالأغنياء منهم يتعاملون فقط في الغالب مع الرءوس الكبيرة: مساعدي الوزير، مديري الأمن وخلافه، ولا مانع أيضًا من أن يتعاملوا أحيانا مع القيادات الوسطى توفيرًا للنفقات! وبالمثل فإن أنصاف الأغنياء كذلك يتعاملون مع أنصاف المناصب، أما بالنسبة للكسيبة أو ممن يطلق عليهم المجتمع عادة "شبع من بعد جوع"، فهؤلاء يتعاملون مع الضباط الغلابة الملقون في الشوارع (وهم الأغلبية)، في الغالب فقط من أجل المنظرة (بهم أو عليهم)، فإن لم يجدوا، فأي أمين شرطة يكون شكله نضيف.

وهذا الاختلاف الرأسي في نوعية الزبائن يقابله أيضًا اختلاف أفقي، أو اختلاف مكاني، فإذا كنت تعمل في منطقة شعبية فزبائنك معلِّمين، إذا كنت تعمل في منطقة راقية فزبائنك رجال أعمال، إذا كنت تعمل في منطقة سياحية، فزبائنك أصحاب شركات السياحة، إذا كنت تعمل في منطقة لتجارة الأجهزة الكهربائية، فزبائنك تجار الأجهزة الكهربائية، إذا كنت تعمل في منطقة لتجارة الذهب، فزبائنك أصحاب محلات الذهب، إذا كنت تعمل في منطقة للآثار، فزبائنك هم تجار الآثار، إذا كنت تعمل في منطقة لتجارة المخدرات، فزبائنك هم تجار المخدرات، أما إذا كنت تعمل في أمن الدولة، فالشعب كله غالبًا ما يكون زبونًا لديك..

ومما يثير الانتباه أن معظم هؤلاء الزبائن يأتون غالبًا من تلقاء أنفسهم، دون أن يرسل في طلبهم أحد، مما يدل على أن

الأمر برمته بمثابة عرف مترسخ ومتبع منذ زمن بعيد، فالضابط لا يحتاج غالبًا في كثير من المواقع إلى الهبوط على أحد بالباراشوت، فالباراشوت قد هبط به أسلافه بالفعل منذ أزمنة سحيقة، والهلب يرقد في قاع البحر ربما منذ عصر الفراعنة.

فما إن يعيَّن مدير أمن جديد، أو مأمور قسم، أو رئيس مباحث، أو مدير مرور، أو رئيس مكتب، أو حتى رئيس نقطة، حتى تجد زبائنه وقد تقدموا إليه – جمعًا أو فرادى – لكي يباركوا له، وتبدأ هذه المباركة غالبًا بإعادة تأثيث المكتب، أو تجديد القسم، أو حتى إعادة بنائه، وتنتهي أحيانًا بأبعد مما قد يصل إليه خيالك.

وهذا الأمر يعد بمثابة إغراء كبير للضابط، خاصة وأن الرواتب هزيلة، لا تتناسب مع الوضع الاجتماعي، ولا مع الفوقية الكاذبة الملازمة لمهنة ضابط الشرطة، ولا مع الصورة الذهنية التي رسمتها له الأعمال الفنية في ذهن المجتمع، فهل يمكنك مثلاً أن تتخيل ضابط مباحث ليس لديه سوى طقم واحد؟! أو بيشرب كليوباترا؟! أو راكب أوتوبيس؟! هذا بالإضافة إلى أن الأمر من فرط قدمه ورسوخه صار أمرًا عاديًا في أذهان الكثير من الضباط، ولا يعتبرونه يمس شرفهم، فلا يعتبر الكثير منهم أن هذا "التكتيف" يعد بمثابة رشوة، فالرشوة في نظرهم هي أن تطلب مقابلاً ما لأمر غير قانوني، ناسين أو متناسين أنهم من

المستحيل أن يطبقوا القانون على هؤلاء الزبائن مثلما يطبقونه على غيرهم.

هذا بالنسبة للضباط المفترض فيهم الشرف، فما بالك بالفاسدين، فهناك من الضباط من يدفعه جشعه إلى أبعد من هؤلاء الزبائن فيمتد إلى الشرفاء الذين يعيشون في حالهم، بل ويمتد أحيانًا إلى الغلابة اللي بياكلوا عيش، ويمتد كذلك ليشمل بيع القضايا، وأحيانًا إلى تلفيقها لبيعها، وأكثر من ذلك، وهؤلاء هم من يعتبرهم باقي الضباط لصوصًا!

ومن الجدير بالذكر أن هناك من الضباط من يضطر لممارسة هذا الأمر لمصلحة قياداته دون أن يمارسه لمصلحته هو، فإن من لا يفعل (وخصوصًا في الأمن العام) غالبًا ما يجد نفسه مهمشًا خارج المنظومة بلا أي مستقبل مهما اجتهد في العمل، إلا إذا استطاع التغلب على هذا بقوة نفوذ واسطته، أو بثراء عائلته.

ولكن على كل حال.. فإن هذا الأمر آخذ في الانحسار تدريجيًا مع الأجيال الجديدة.. ربما لأنهم في السنوات الأخيرة قصروا القبول في الكلية غالبًا على أبناء الأسر ذات المستوى المادي المرتفع ولو نسبيًا، في إطار ما كان يسمى بسياسة تزاوج المال بالسلطة.. أو ربما لأن الأجيال الجديدة بشكل عام أنضف.

وبالرغم من أنني انتبهت مبكرًا إلى مدى فداحة هذا الأمر، إلا أنه أصبح عادة لا أستطيع أن أدعي أنني نجحت في التخلص منها تمامًا، فهي شيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وما زلت حتى الآن - رغم استقالتي - أمارس تلك "السحتجة" اللاإرادية على من حولي.. دون وعي!!

بلبيس

مشهد:
خريف ٢٠٠٢ – كمين بلبيس – مدينة السلام
طريق القاهرة / بلبيس الصحراوي

وصلت إلى الكمين فاستقبلني الرائد "أحمد سلام" ضابط الخدمة الصباحية معاتبًا:

– يا باشا حرام عليك والله كده.. أنا عندي عيال.

– والله العظيم تلاته أنا نازل م البيت من ساعة ونص، ساعة ونص في مشوار مايخدش تلت ساعة، باقف أصلاً ييجي نص ساعة عقبال مالاقي مكيروباص فيه مكان.

– إنت بتركب ميكروباص إيه بالظبط؟

– المطرية – السلام (إسكندرية).

– طب ماتكلمني يا باشا وأنا أخلي العيال يبعتولك ميكروباص.

– والله أنا كنت باعمل كده في كمين السويس.. بس السويس أصله كان بعيد أوي، لكن هنا في موصلات.. المهم..

في حاجه النهارده؟

- أيوه في حملة طلعت على العرب فوق... مدير المباحث فوق ومعاه ييجي ميت ظابط مباحث.. والأمن المركزي باعت ييجي ميت مدرعة.. والجيش باعت طيارة هليوكوبتر وشغالين دب فيهم م الصبح.

- اللللا!! وإيه يعني اللي فكرهم بيهم النهارده؟!

- أنا عارف؟! والمصحف عالم بتهرج.. مفيش حد يعرف يعمل حاجة مع العرب في الصحرا، ع الأسفلت بره ماشي لكن جوه الصحرا انسى، والله لو عملوا إيه.

- طب واحنا إيه موقفنا من الحملة دي؟

- ولا حاجه.. أدينا واقفين متلقحين وخلاص... المهم سلام بقا علشان ألحق أتغدى.. متتأخرش بكره والنبي.

- حاضر.

التف حولي أفراد الكمين للترحيب بي كالعادة.. الأمين "عماد" (فرد المباحث) بهيئته التي تفوق منصبه (كثيرًا ما كان يظن الناس أنه هو ضابط المباحث بينما أنا واحد واقف بيتفتش عادي) ولأنه يعتبر بمثابة الذراع اليمنى لضابط المباحث يطلق عليه الجميع "عماد بحث":

* العريف "طه" أو "شنبو" (فرد النظام) بقامته القصيرة وشواربه المفتولة الملفوفة ومنظره الكلاسيكي الذي يذكرك هو وشخصيته وتصرفاته بشاويش نص الليل في الأفلام القديمة.

* الأمين "عبد المعطي" (أمين المرور) وهو أحد أكثر أمناء الشرطة الذين عرفتهم في حياتي ألاطة، وبدون أي مبرر مفهوم..

* وأخيرًا المندوب "ياسر" (فرد الاتصال) المسئول عن تلقي الإشارات وإرسالها، وهو شخص مكانه الطبيعي مستشفى الأمراض العقلية..

قال لي عماد (بحث):

- حمد الله ع السلامة يا باشا.

- الله يسلمك يا عماد.

فقال لي ياسر (المجنون) وهو يتأرجح يمينًا ويسارًا:

- شفت يا ريس؟ مدرعات وطيارات ودبابات ومدافع وصواريخ وهيصة!

فقال "عماد":

- أيوه يا باشا خلاص.. مصر أعلنت الحرب على عرب بلبيس.

فقلت قلقًا:

- طب وبعدين؟؟ مش هانعرف نطلع النهارده واللا إيه؟؟

فرد "عماد":

- لأ.. شكلها النهارده كده مفيش طلوع.. نريَّح بقا النهارده مافرقتش يوم.. مش لازم كل يوم مجهود يعني.

أشار "عبد المعطي" (الأليط) بأصبعه متفاخرًا:

- يا باشا أنا اتصلت بمفتش المباحث وقلت له معلش سيادتك.. محمد بيه محمود النهارده مش هايقدر يجيب مجهود

علشان في حملة فوق.. قال لي خلاص يا عبد المعطي.. علشان خاطرك إنت بس.

تبادلت النظرات مع "عماد" فانفجر ضاحكًا.. فقال ياسر (المجنون):

- أنا من رأيي إننا نقف نشتغل النهارده في الكمين وأهو نعمل لنا قرشين ينفعونا في مستقبلنا.

فرددت عليه:

- والنبي تتلهي.

برم طه (شنبو) شواربه كالعادة مغمغمًا:

- همغممم هغممم مغمممممماشا.

فرددت:

- إيه؟!

- همغممم هغممم مغمممممماشا.

- إنت بتقول إيه يا طه؟! ارفع شنبك شويه علشان أعرف أقرا شفايفك حتى.

- أنا باجول يا باشا.. إن العرب دولي.. لازم يتوضع لهم حد.

- حاضر يا طه... هنوضعلهم حد حاضر.. عيني.. تؤمر بأي حاجه تاني؟

- همغممماشا.. (غالبًا: شكرًا).

انتهت الحملة عند غروب الشمس، فعادت الطائرات والدبابات والمدافع إلى مواقعها سالمة... هذا وقد اشتهر طريق بلبيس

بخروج الأعراب ممن يقطنون الصحراء ليلاً إلى نقاط معينة على الطريق، لبيع البانجو بكميات كبيرة وبأسعار الجملة، ويتردد عليهم الكثير من تجار المخدرات الصغار، وأحيانًا المتعاطون ممن يفضلون تخزين الكميات، وبالطبع لا يمر أحد هؤلاء الزبائن على الكمين لمعرفتهم جميعًا بمكانه، فهناك طرق كثيرة غيره، مما كان يدفعنا إلى المخاطرة بالذهاب إلى هناك بأحد الميكروباصات لالتقاط زبون أو اثنين من هؤلاء يوميًّا، ودائمًا ما كان يعرف العرب بوجودنا، ودائمًا ما كانوا يسمحون لنا بالقبض على زبون أو اثنين على الأكثر، فإن طمعنا وأطلنا البقاء، فتحوا علينا النيران.. يبدأون بإطلاقها في الهواء أولًا، فإن لم ننصرف يضربون في المليان، ولا نستطيع الرد عليهم بالطبع لأننا في غير مكان الخدمة، فضلاً عن أن تبادل إطلاق النار معهم لن يكون في صالحنا.

هذا كله.. وإلا فمافيش مجهود!

انتهينا من صلاة العشاء التي أؤم فيها الكمين كله قسرًا كالعادة... اقترب مني "عماد" وأنا جالس أسبح هامسًا في أذني:

– باشا.. أنا عرفت دلوقتي من سواق لسه جاي من فوق إن العيال واقفه شغاله عادي.. ولا كأن فيه أي حاجه حصلت!

– يا صلاة النبي!! أمال بس دبابات وطيارات ومدافع وصواريخ!!

– شفت؟! يا باشا دول عالم ولاد قحبة.. مهما عملوا معاهم

مفيش فايدة.

- طب إيه؟! نطلع واللا إيه رأيك؟!

- مش عارف! العيال هاتلاقيهم زهقانين م الضرب طول النهار وممكن يتغابوا، وبعدين مفيش حد من الأفراد العدلة ناخده معانا.

- ممكن ناخد عبمعطي.

- يا باشا هاناخد عبمعطي نعمل بيه إيه بس؟!

- أهه منظر وخلاص.. أصل لو خدنا طه هاينام مننا.. ولو خدنا ياسر هانموت كلنا فوق.. هات عبمعطي وتعالى نبص بصة.

- طيب.. يعني أشوف ميكروباص؟

- لأ هات تاكسي المره دي.

استقللنا التاكسي أنا و"عماد" و"عبد المعطي"، فقلت لياسر مودعا:

- خلي بالك م الكمين يا ياسر.. وخد بالك علشان لو حد هرب مننا هاندّيلك رنة تقفشه إنت.

- ماتقلقش يا باشا... لو حد هرب منكوا قولوا "جزر" بس.

- وماتوقفش حد تقلّبه.

- عيب.

- وخد بالك من طه.

- طه نايم جوه.. هاخش أغطيه حالاً.

انطلقنا نحن الثلاثة ورابعنا السائق إلى ظلمات طريق بلبيس، وبالفعل وجدنا الأعراب في مواقعهم يمارسون عملهم كالمعتاد،

وكأن شيئًا لم يكن! فقلت لعبد المعطي:

– بص يا عبمعطي.. إحنا هانّزّلك هنا وعقبال ما نلف إحنا من قدام ونيجي تكون إنت لقطت لك زبون.

فرد عبد المعطي منزعجًا:

– أنزل فين يا باشا؟! أنا يا باشا بتاع مرور.. ماليش دعوة أنا بالكلام ده.. أنا جيت بس علشان مازعلكش.

فتدخل "عماد":

– أومال عامل لي فيها بس برم وصايع وقارفنا.. وإنت أصلاً جبان.. مش عيب شحط زيك كده يخاف؟

فرد عليه عبد المعطي ثائرًا:

– طب ماتنزل إنت يا أخويا.. هو مش إنت بتاع المباحث؟!

– أنا طالع مع الباشا قدام.. ولعلمك بقى الحتة اللي قدام دي أخطر مليون مرة.. وأنا ماقدرش أسيب الباشا يطلع هناك لوحده.

– يا سلام!!

فقلت أنا مشيرًا للسائق أن يتوقف:

– انزل يا عبمعطي... انزل علشان لو فضلنا واقفين كده نرغي كتير هايخدوا بالهم وهايضربوا علينا نار وإنت أول واحد هاتموت.

نزل "عبد المعطي" مستسلمًا مبرطمًا، وانطلقنا نحن.. وما إن وصلنا للملف حتى سمعنا دوي الرصاص من خلفنا.. فقال "عماد":

– شفت يا باشا؟ مش قلتلك هايتغابوا.

– ما أنا علشان كده نزلت عبمعطي... زمانه مات.

– ياللا خلينا نخلص منه.

أشرت للسائق بأن يستدير... وما إن وصلنا للنقطة التي تركنا فيها "عبد المعطي" حتى وجدناه في منتصف الطريق يجري باتجاهنا ملوحًا بيديه متخليًا عن وقاره المعتاد، بينما يخرج من ظلام الصحراء ما لا يقل عن ٣٠ عيل صغير يرجمونه بالطوب، في حين يقف الأعراب على ربوة عالية يطلقون النيران في الهواء في مشهد دراماتيكي أخاذ. وعندما وصلنا لعبد المعطي والتقطناه، نالنا بالطبع من الطوب جانب، فهتف السائق ملتاعًا:

- يا نهار اسود.. العربية.. ده صاحبها هايموتني.

ثم قال عبد المعطي في ثورة عارمة:

- يا باشا حرام عليك.. حرام عليك.. أنا مش بتاع الكلام ده.

فقلت له:

- أول ما نوصل الكمين يا عبمعطي تاخد السواق تصلح له العربيه عند أي سمكري م اللي بتصلحوا عندهم عربيات المرور.

وقبل أن نصل للكمين، وجدت شخصًا على جانب الطريق في الصحراء يشير للتاكسي، فأمرت السائق أن يقف له، وأشرت لعماد بأن هاته، وقف له السائق ونزل "عماد" فخطفه للداخل في لمح البصر قبل أن يفهم شيئًا.. فتشه ثم ضحك قائلاً:

- جت من عند رينا أهِه يا باشا!

ثم أعطاني اللفافة!!

جينز وكوتشي

عندما شرع "محمد علي" في بناء مصر الحديثة، كلف المدعو "لاظوغلي" بإعادة بناء جهاز الشرطة (وربما لهذا السبب تقع اليوم وزارة الداخلية في ميدان لاظوغلي)، وقد نجح "لاظوغلي" هذا في إعادة "هيكلة" جهاز الشرطة في كيان محكم، بعد أن عاشت البلاد فترة انفلات أمني استمرت لما يقرب من ثلثمائة عام!! وأسس وقتها فيما أسس ما يسمى بالشرطة السرية، وكان أفراد الشرطة السرية تلك يتميزون عن غيرهم بارتداء الملابس العادية دون الزي الرسمي، وكانت مهمتهم هي التنكر في هيئة الباعة الجائلين، والتردد على دور الأعيان الناقمين على السلطة، ورفع التقارير إلى أولي الأمر لاتخاذ اللازم.

كان يطلق عليهم لفظ "البصَّاصين".

وكان سلاح "البصَّاصين" هذا هو النواة الأولى لما سمي بعد ذلك بالمباحث، تلك التي تفرعت في ما بعد إلى مباحث جنائية

ومباحث سياسية، وتفرع بعد ذلك كل منهما إلى ما يصعب حصره من الفروع.

ورغم أن المباحث أصلاً وتعريفًا هي الشرطة السرية، فأنا طوال عملي في مباحث القاهرة والذي امتد لأكثر من تسعة أعوام، لم أر لهذه السرية أي وجود على الإطلاق، بل على العكس تمامًا، يتفنن جهاز المباحث والعاملين به في إظهار أنفسهم، فضابط المباحث الناجح هو ذلك الضابط الذي تعرفه دائرته كلها، أي أن الشهرة مقياس لنجاح الشرطي المفترض أنه في الأساس شرطي سري، وتلك أحد التناقضات غير المنطقية في جهاز الشرطة في مصر، بل وإمعانًا أيضًا في عدم المنطقية، فإن رجال المباحث إن أرادوا مثلاً القيام بحملة، فإنهم يستولون على ميكروباص من الموقف وليس السيارة البوكس، وهذا من باب التخفي، متجاهلين تمامًا أن جميع من في الشارع يعرف جيدًا أنهم حكومة!

ويتجلى حب الظهور هذا في الاهتمام المبالغ فيه بالمظهر، فأغلب ما تسمعه باستمرار من قيادات المباحث، يكون عبارة عن أسئلة من هذا القبيل:

إيه اللي إنت لابسه ده؟!

ده منظر ظابط مباحث؟!

في ظابط مباحث يلبس كده؟!

في ظابط مباحث يحط جيل؟!

كان دومًا ما يوجه لي هذا السؤال:

– إحنا مش قولنا ميت مرة ماحدش يلبس جينز وكوتشي؟؟

– أصل سيادتك أنا شغال طول اليوم في الشارع، ومش معقولة هاقف في الشارع طول اليوم لابس كلاسيك، وبعدين سعادتك أنا رفيع جدًا واللبس الكلاسيك بيرفعني أكتر.

وعندما يعجزه المنطق تجده على الفور وقد التفت إلى رئيسك المباشر ليصب غضبه عليه:

– شوف الظابط ده ماله يا إسماعيل، ولو شفت أي ظابط عندك لابس جينز ولا كوتشي تاني أنا هارفعك م المباحث.

وتلك المظهرية المبالغ فيها إنما تعكس العنطظة الفارغة التي يملأون بها رأسك منذ دخولك للمباحث، فيشعرونك أنك وقد صرت في درجة أعلى من باقي الضباط، ويظلون يضخمون فيك هذا الشعور حتى تشعر أنك في أَملَة كبيرة، فيحكمون بهذا السيطرة عليك، فيظلون يهددونك طوال الوقت بالرفع من المباحث، فتظل دائمًا في حالة خوف من الرفع من المباحث والانتقال للعمل النظامي، وإذا تجرأ أحد الضباط وتقدم هو بطلب للرفع من المباحث، فإنهم يحاولون إثناءه بشتى الطرق، فإذا أصر وفعلها في النهاية فإن باقي الضباط ينظرون إليه باعتباره بطلاً قوميًا، وهذا كله يفسر لماذا لا يضمون للمباحث سوى الضباط صغار السن، لكي يكون ملء الدماغ أسهل بالنسبة إليهم.

وإذا أردت أن تعرف الفارق بين ضابط المباحث وضابط النظام فسوف تجد تنظيرات كثيرة في هذا الشأن، ولكن الفارق على أرض الواقع يتلخص في أمرين:

الأمر الأول هو أن ضابط المباحث يرتدي الملابس المدنية، بينما يرتدي ضابط النظام اللبس الميري.. والأمر الثاني هو أن ضابط المباحث يعمل فيما يشبه السخرة، حيث تتعامل معه القيادات على أنه ملك يمينهم، فلا يأخذ إجازات من أي نوع (أذكر أنني ظللت قرابة تسعة أعوام لم أحصل على إجازة أسبوعية ولو مرة واحدة)، بالإضافة إلى أنه ليس له مواعيد عمل محددة، ففي الكثير من المواقع لا يرى ضابط المباحث أسرته سوى مرة واحدة في الأسبوع بالكتير (يستثنى من هذا الخدمات الثابتة التي سوف يأتي الحديث عنها بالتفصيل فيما بعد)، هذا فضلاً عن التليفونات، فأنا حتى هذه اللحظة ما زلت أفزع كلما رن جرس هاتفي، في حالة لم أجد لها مثيلاً في علم النفس يمكنك أن تطلق عليها "تليفوناتوفوبيا".

الشيء الآخر الذي يميز المباحث هو ذلك الشك المفرط، وسوء الظن الدائم والمبالغ فيه، بل والثقة العمياء في تلك الظنون، صحيح أن هذه العلة أصبحت علة عامة لدى المجتمع بأسره، ولكنها في المباحث تتجلى بصورة أكبر وأعمق بكثير، ربما يكون هذا بسبب كثرة التعامل مع الإجرام، وربما بشكل ما يكون هذا الشك مفيدًا في العمل، ولكن المشكلة أنك بعد فترة يتحول

خيالك مع الوقت تدريجيًا - دون أن تشعر - إلى خيال مريض، والمصيبة أن تلك الظنون أحيانًا ما تترجم إلى ما يسمى بتحريات المباحث، تلك التي يُعتد بها في المحاكم.

ولا يمكن الانتهاء من الحديث عن المباحث بالطبع دون الحديث عن التعذيب، فقد ارتبطت المباحث في أذهان الكثيرين بالتعذيب، وبالفعل فقد ظلت المباحث الجنائية لعقود تعتمد عليه كوسيلة رئيسية في حل القضايا، وإحقاقًا للحق فتلك الوسيلة رغم همجيتها وعدم إنسانيتها فقد كانت مجدية في التحقيقات، إلا أنه قد قل الاعتماد عليها إلى حد كبير في السنوات الأخيرة تحت وطأة ضغط المنظمات الحقوقية ومنظمات العمل المدني، وقلت معها نسبة القضايا المحلولة، وزادت معها بالتبعية نسبة الجريمة، فقد وجدت المباحث نفسها - بدون التعذيب - عاجزة إلى حد كبير عن حل كثير من القضايا، حيث إنهم في الغالب لا يعرفون طرقًا أخرى غيرها في التحقيق، وهذا بالطبع لا يعني أن التعذيب هو الحل، ولكن الحل يكمن في العلم، تلك الفريضة الغائبة عن الدولة بأكملها منذ زمن، ويكمن أيضًا في الإنسانية، ذلك المصطلح الذي لا يعرف الكثيرون ماذا يعني.

أما بالنسبة للمباحث السياسية والتي كانت تسمى أمن الدولة فقد كان مسموحًا لها بالتعذيب طوال الوقت، وبشكل عام لقد كان مسموحًا لها بجميع المحظورات، ولكن لم يكن التعذيب هو وسيلتها الأساسية في التحقيق، فقد كان مجرد وسيلة من عدة

وسائل في منظومة كبيرة تعتمد في عملها بالأساس على الخوف.. وعن أمن الدولة يمكنك أن تضرب كل ما سبق في أضعاف مضاعفة، فقد كانوا يضمون الضابط الذي لم يمر على تخرجه سوى عام أو عامين على أقصى تقدير، يختفي عندهم لمدة ستة أشهر فيما يسمى بفرقة أمن الدولة، يخرج بعدها من تلك الفرقة وقد تحول إلى إنسان غامض مبهم، تسأله ماذا يحدث في تلك الفرقة، فلا تجد منه جملة مفيدة، تسأله عن أخبار العمل فلا يجيب، وتشعر دائمًا معه بأن الجو كله مكهرب، وأننا مراقبون طوال الوقت بشكل ما، و(إن اللي بنعمله في الناس بيطلع علينا!).

بلبيس ٢

مشهد :
صيف ٢٠٠٤ - كمين بلبيس - مدينة السلام
طريق القاهرة/ بلبيس الصحراوي

أجلس إلى مكتبي على الرصيف أحرر أحد محاضر المخدرات، فدخل عليّ "عماد" فرد البحث قائلاً:

- باشا في واد من اللي ماسكينهم واكل نافوخي م الصبح عمال يزن عايز يكلم سيادتك.. أجيبه؟

- أنهي واد فيهم؟

- الواد بتاع النهضه اللي هو مسيحي على مسلم ده!

- عايز إيه يعني؟

- معرفش.. أجيبه لسيادتك واللا إيه؟

- هاته.

أتي به "عماد".. وهو شاب في العشرينات يشبه الآلاف من الشباب الذين يبدو على ملامحهم البؤس.. فبادرته قائلاً:

- عايز إيه؟

- أنا يا باشا بس عايزك تسمعني دقيقتين.

- قول..

- دلوقتي يا باشا أنا كنت مسيحي وأسلمت.. حتى لو سيادتك خدت بالك في البطاقة هتلاقي أسامي أبويا وجدي مسيحيين.

- أيوه خدت بالي.. أعمل إيه بقا أنا يعني؟!

- ما أنا جاي لسيادتك في الكلام.. دلوقتي أنا أسلمت عشان كنت باحب واحدة مسلمة.. فأسلمت واتجوزتها.. ومن ساعتها وأهلي اتبروا مني.. ومراتي حصل معاها نفس الكلام أهلها برضه مقاطعينها.. وإحنا يا باشا والله ولاد ناس أنا معايا بكالوريوس تجارة ومراتي معاها ليسانس آداب.. وأنا أهلي تجار دهب في الصاغة ومرتاحين يعني.. وطول عمري شغال في الدهب مع أبويا وإخواتي.. ومراتي سعادتك من مصر الجديدة.. وفي الآخر مالقيناش مكان نسكن فيه غير في مساكن النهضة.. وجوه خالص عند الصحرا.. وسعادتك عارف هناك المكان عامل إزاي.. العرب بيطلعوا علينا في البيوت يثبتونا بالآلي.. وبقالنا سنتين من ساعة ما اتجوزنا مش لاقيين شغل وبنشحت ومذلولين للي يسوا واللي ما يسواش.. واتبهدلنا والله العظيم تلاتة آخر بهدلة.. فمالقيتش حاجة أعملها في الآخر غير إن أنا يعني أجيب بانجو وأبيعه.. والمنطقة عندنا هناك كلها شغاله كده! بس.

- وإنتو أهاليكوا سايبنكو كده إزاي؟!

- مفيش غير أخ واحد ليا كان بييجي من وقت للتاني يسيبلي فلوس.. لحد ما أبويا عرف قام مبهدله وهدده أنه هايطرده

هو كمان.. ومن ساعتها بطل ييجي لي.

- ... ...

- والله يا باشا أنا حكيتلك قصتي زي ما هي.. وإللي تشوفه بقا سيادتك.

- طب روح دلوقتي وأنا هاشوف.. وديه يا عماد وتعالى.

ذهب به "عماد" إلى الحجز وعاد مرة أخرى فسألته:

- إيه رأيك؟

- والله يا باشا الواد شكله كده مش كداب.. وشكله ابن ناس فعلاً واتبهدل.

- طب بص.. أنا عايزك تروح المنطقة عنده.. هو من النهضة هنا مش بعيد.. اسأل كده عليه شوف الكلام اللي قاله صح ولا لأ وتعالى.

- ماشي.

انصرف "عماد".. واستغرقت أنا مفكرًا في كم أن الحياة قاسية!! وتساءلت متعجبًا: كيف يمكن لدين الله أن يدفع الناس إلى مثل هذه القسوة؟!! استغرقت في التفكير حتى نسيت المحضر والكمين وكل من حولي.. وظللت هكذا حتى قطع عليّ "ياسر" المجنون أفكاري صارخًا:

- بااشاا.. مرور يا باشا.

دخل عليَّ مفتش المباحث بقامته القصيرة وصلعته المهيبة وكرشه الوقور.. وهو رجل محترم برتبة عقيد.. سلم عليَّ وجلس

مكاني بينما جلست أنا بجواره.. طلب القهوة ثم سألني السؤال اليومي:

- ها.. إيه الأخبار النهارده؟

- جبنا سعادتك اتنين.. واحد معاه كيلو وواحد معاه ربع.

- كويس.

- بس في سعادتك واحد عايز أوريهولك.

فالتفت نحو "ياسر" قائلاً:

- هات الواد اللي كان واقف هنا من شوية م الحجز.

- أنهي؟

- اللي كان واقف بيتكلم معايا من شويه أنا وعماد.

أتي به "ياسر" بعد أن علّني كعادته.. فقلت له:

- احكي للباشا اللي إنت حكيتهولي من شويه.

فأخذ الشاب يسرد لمفتش المباحث قصته المؤلمة.. وحين انتهى من السرد، أعاده "ياسر" إلى الحجز.. فنظر إليَّ المفتش متسائلاً:

- إنت إيه؟ إنت عايز تمشيه واللا إيه؟

- بصراحة آه صعبان عليا أوي.. وبعدين ماعهوش كتير يعني ده ربع كيلو.

- يا عم ده عيل كداب ابن وسخة.. إنت بتصدق الأشكال دي؟!

طب أنا على فكرة بعت سألت عليه في المنطقة عنده وعرفت إن اللي قالوا ده صح.

فوقف متجرعًا ما تبقى من قهوته.. ثم قال لي وهو يهم

بالانصراف:

- بقولك إيه يا عم محمد.. ماتطلعش عين أمي.. إنت بتخلص وتروح بيتكوا تنام.. إنما أنا باخلص واروح اتلِطع في مكتب مدير المباحث بالساعتين والتلاتة.. وفي الآخر أخش له أنا ويقية المفتشين يقعد يهزأ فينا ويمرمط بكرامتنا الأرض ع المجهود.. فاعمل المحاضر وابعتهم ع القسم واخطر بيهم على طول... سلام.

شر الطريق

بعد انتقالي للعمل في جهاز المباحث، تم وضعي فيما يسمى إدارة تأمين الطرق والمنافذ، وهي أحد اختراعات "حبيب العادلي" الفذة، وهي باختصار تلك الإدارة المنوط بها عمل الكمائن.

والكمين في الشارع هو اختراع مصري بحت، فعلى حد علمي لا يوجد في أي دولة من دول العالم المتحضر والمتخلف على حد سواء أن يقف مجموعة من ضباط الشرطة وأفرادها بدون سبب معين في الشارع، لكي يستوقفوا السيارات قائلين لسائقها: رخصك، ولمن يجلس بجانبه: بطاقتك، ولمن يجلس في الخلف: انزل لي.

ففي جميع أنحاء العالم لا توجد نقاط تفتيش إلا في المعابر الحدودية بين الدول، أما أن تجد أكمنة بين المدن وبعضها، فهذا فيما أعتقد لا يوجد إلا في الدول المحتلة، فضلاً عن أنه لن تجد في إحدى دول العالم كمينًا يستوقفك في شارع الخليفة المأمون، أو في شارع جامعة الدول، أو حتى في ترعة الجبل.

وحاولت مرارًا أن أفهم المغزى الحقيقي من وراء هذه الأكمنة فلم أفهم، فكلمة "كمين" في حد ذاتها توحي بعنصر المفاجأة، ذلك العنصر غير الموجود بالمرة في أكمنتنا، فأغلب الناس تعرف أماكن الأكمنة (الثابتة منها والمتحركة)، وتعرف كيف تتفادى الكمين عبر طرق أخرى، ولن تجد مجرمًا حقيقيًّا عاقلاً يحترم نفسه يذهب إلى الكمين بقدميه، وعلى هذا فإن هذه الأكمنة لا تقبض في الغالب سوى على "مخالفي القانون بالصدفة"، هؤلاء الذين هم مثلي ومثلك، ولو سمعت يومًا عن كمين استطاع القبض على مجرم حقيقى، أو أتى بقضية عليها القيمة، فاعلم أن الضابط قد ترك مكان الكمين ليقوم بعمله الحقيقي، في مبادرة شجاعة منه (وأحيانًا متهورة) ربما عوقب عليها لو كشف أنه قد فعلها.

هذا والمطلوب منك دائمًا في الكمين هو المجهود، والمجهود هذه المرة يختلف عن مجهود المرور في أنه يتمثل في القضايا الجنائية، مما يجعلك في بادئ الأمر ترهق السيارات المارة تفتيشًا وبحثًا، وترهق مستقيلها إهانة وتعطيلا، بحثًا عن سيجارة حشيش أو مطواة أو شريطين ترامادول، ثم تكتشف عندما تأتي لحظة تحرير المحضر أنك مضطر لاختلاق قصة خيالية لم تحدث على الإطلاق! ليه بقا؟؟ لأن تفتيش السيارات في الأصل ممنوع، ولا يجيزه القانون إلا بموجب إذن من النيابة العامة أو في حالة وجود حالة تلبس صريحة، حيث رأى فقهاء القانون أن السيارة منزل متحرك، له حرمة البيوت.. فتجد نفسك مضطرًا إلى تأليف قصة

تحكيها في كل محضر تكتبه، لتختلق بها حالة التلبس المطلوبة، فتجد المحاضر مليئة بالقصص الخيالية المضحكة، مثل أنك قد رأيت قطعة من مادة بنية اللون تشبه مادة الحشيش المخدر على تابلوه السيارة الأمامي! أو مثل أنه عندما رأى الكمين نزل من السيارة وجري! وغيرها... وربما تكون معذورًا في هذا، فأنت بين مطرقة النيابة وسندان المجهود، ولكن هذا لا ينفي أن صلب عملك في هذا الكمين أصلاً مخالف للقانون!!

ولهذا السبب فإن أغلب القضايا التي تراها في الإحصائية في الشريط أسفل الشاشة على القنوات الفضائية، والتي يصدعون بها رأسك عن مجهودات الأمن، هي في أغلبها قضايا فشنك، تخلي النيابة سبيل معظم المتهمين فيها، ولا تعبر إطلاقًا عن أي شيء سوى أن الداخلية بتتمنظر.

وأحيانًا ما كان يزيد الإلحاح على المجهود إلى درجة هستيرية: المجهود المجهود المجهود، مما يجعلك تضغط على الناس بدرجه أكبر، هذا فضلاً عن التوتر والإجهاد العصبي الذي يسببه لك هذا الإلحاح الهستيري، فتزيد بالتالي درجة غباوتك على الخلق.. ولكن أحيانًا ما كان يقل هذا الإلحاح، وأحيانًا ما كان يختفي تماماً.

وقد كنت ألاحظ أن ذلك الإلحاح على المجهود غالبًا ما تزيد حدته أو تقل بشكل جماعي، أحيانًا يشمل الجمهورية كلها، مما

يشي بأنها ربما تكون "أوامر عليا" بالضغط على الشعب أو العكس.

ومن الجدير بالذكر أن الكمائن في فترة ما بعد الثورة صار لها استخدام واحد فقط لا غير، وهو الدعاية للحكومة الجديدة، فكلما تغيرت الحكومة قام الوزير الجديد بنشر الأكمنة في الشوارع، ثم قام بنشر الإحصائية في شريط الأخبار، جاعلاً عملاء الإعلام يهللون لعودة الأمن، ودمتم على كده، ثم لا تلبث الحقيقة المؤسفة أن تظهر بعد فترة، بعد أن يقع الناس في مواقف تهدد حياتهم وحياة أسرهم فيطلبون النجدة فلا يجدون من ينجدهم، ومع كل حكومة جديدة يأتي الوزير الجديد ليفعل ما فعله سلفه حرفيًا، والغريب أن هناك من يصدقون في كل مرة!

وكل ما ذكرته هذا كان يستفزني بشدة... فأنا أقف في الشارع لمدة ٨ ساعات على الأقل، مغلسًا على خلق الله، معطلاً لحالهم، بل ومخالفًا للقانون، لمجرد أن تكون إحصائية المباحث التي تعرض على الوزير ممتلئة بالأرقام، فيصبح راضيًا عن مدير المباحث! وما هو أكثر استفزازًا من هذا هو أنني لم أجد من يرى في عدم قانونية ما نفعله أمرًا شاذًّا، أو غريبًا!.. ولكن كان هذا قبل أن أنتبه أن القانون ليس له أي اعتبار من الأساس!!

نيابة

مشهد :
ديسمبر ٢٠٠٥ – نيابة السلام
مجمع محاكم مصر الجديدة

استقبلني وكيل النيابة كالعادة مرحبًا بي داعيًا إياي للجلوس.. جلست بعد أن سلمت عليه وعلى زميليه اللذين يشاركانه الحجرة الأنيقة، والمنهمكين في عملهما.. جلس خلف مكتبه متوسط الفخامة، ببذلته الكاملة دائمًا أبدًا، وذقنه الحليقة، ومظهره المرتب.. ابتسم قائلاً:

– إيه الأخبار يا باشا عامل إيه؟

– الحمد لله يا باشا كله تمام.

التفت للسكرتير:

– طلع القضايا بتاعت محمد بيه محمود.

ثم التفت إلي:

– تشرب إيه بقا الأول؟

– يا باشا ربنا يخليك ولا حاجه.

- لأ.. لازم تشرب حاجه.

- طيب يا باشا قهوة ياريت.. قهوة سادة.

ضغط على الجرس بجوار مكتبه، ثم قال لي معاتبًا:

- يا باشا أنا على فكرة بابعتلك بقالي ييجي شهرين.. وفيه عندنا هنا ييجي تلاتين قضية ليك لازم تتسئل فيهم قبل ما الورق يمشي من عندنا.. فمش كده يعني.. حرام عليك.. الشغل بيتأخر والله.

- والله يا باشا إنت عارف ضغط الشغل عامل إزاي.. يعني أنا بايت طول الليل في الكمين وجاي من هناك على هنا على طول... فمعلش بقى غصب عني والله.

- يا باشا ربنا يكون في عونك.

ثم ابتسم مستطردًا:

- هي على فكرة القضايا كلها خدت إخلاء سبيل... مفيش تقريبًا ولا واحد اتحبس فيهم... بس إنت فاهم بقى ورق وروتين ووجع دماغ لازم يخلص.

قالها ربما بقصد إغاظتي وربما بقصد تنبيهي.. لا أعلم.. ولكن على كل حال فهو لا يعلم أن إخلاء سبيلهم يريحني أكثر مما يغيظني أو يضايقني.. فأنا لم أصل يومًا إلى القناعة بما أفعله.. فأغلب من أقوم بضبطهم ضحايا، وأغلبهم ممن لا ظهر لهم ولا سند.. يتعاطون المخدرات لكي يسكَنوا بها اليأس، أو يبيعونها بعد أن ضاقت بهم السبل.. أما المجرمون الحقيقيون، أولئك الذين يستحقون الحبس، فلم تصل إليهم يدي إلا نادرًا...

قطع عليّ أفكاري:

- باشا.. جاهز؟

- اتفضل يا باشا.

- قول يا باشا: "والله العظيم أقول الحق".

- والله العظيم أقول الحق!!

تعليمات سيادتك

"أقسم بالله العظيم (٣)... أن أحافظ على النظام الجمهوري... وأن أحترم الدستور والقانون... وأن أرعى سلامة الوطن... وأن أؤدي واجبي بالذمة والصدق".

هذا هو نص القسم الذي يؤديه ضابط الشرطة في حفل تخرجه، يقسم فيه كما هو واضح على أربعة أشياء، يقسم أولاً على الحفاظ على النظام الجمهوري، الذي لا يعرف أحد بالضبط ما هو هذا النظام الجمهوري الذي يبدأ القسم بالحفاظ عليه، فهل هو مثلاً مقابل للنظام الملكي؟ وهل النظام الجمهوري هذا هو الذي يكفل صالح الوطن وسلامته؟ فمصر نظامها جمهوري وألمانيا مثلاً نظامها جمهوري هي أيضًا، وبالتأكيد ليس النظام هنا مثل النظام هناك وإلا كانت النتيجة واحدة، كما أن هناك دولاً فيها النظام ملكي وشتان الفارق بينها وبيننا، إذن فالجمهورية ليست هي مربط الفرس لكي يقسم الجميع على الحفاظ على نظامها المزعوم، ولماذا أصلاً يبدأ القسم بالحفاظ على النظام؟؟ هو إيه النظام؟!!

ويقسم الخريج أيضا في نفس القسم على أمرين، أن يرعى سلامة الوطن، وأن يؤدي واجبه بالذمة والصدق.. وهو لا يعلم بالطبع أنه سوف يحنث بهذا القسم شاء أم أبى، أحيانًا رغمًا عنه، وأحيانًا بإرادته، وأحيانًا دون أن يشعر، ولكنه سوف يحنث به لا محالة، ولكن النقطة الأهم في هذا القسم على الإطلاق هي احترام الدستور والقانون.

وخريج كلية الشرطة (مثل أغلب خريجي مصر) يتخرج ناسيًا كل ما تعلمه داخل الكلية، أو بمعنى أصح كل ما حفظه، فهو يتخرج غالبًا وهو لا يعرف شيئًا عن القانون فضلاً عن الدستور، ولا يجد بعد تخرجه من يهتم بتعليمه، فهم لا يهتمون عادة بالقانون، فجُل ما يهتمون به هو التعليمات.

فليس الضابط الكفء هو ذلك الضابط الذي على دراية واسعة بالقانون، وليس هو الضابط القادر على تطبيق القانون بحرفية وإخلاص، بل إنه ذلك الضابط الملتزم بتنفيذ التعليمات!، وهنا يتجلى ما يسميه البعض بعسكرة الشرطة، وعسكرة الشرطة تلك، هي في الحقيقة أصل الداء.. وأس الفساد.

فهناك في الأصل اختلاف جذري أصيل بين الرجل العسكري ورجل الشرطة، وبين مهمة هذا وذاك، فالرجل العسكري مهمته في الأصل هي الحرب، تلك الحرب التي قد يشترك فيها فور تخرجه، وقد لا يشترك فيها طوال حياته، ولكنها في جميع الأحوال مهمته

الأصلية التي يعلم ويربى ويعد من أجلها، وفي الحرب، القانون هو الخطة العسكرية التي تضعها القيادات العليا، ودور الضابط في تلك الخطة يأتيه في صورة تعليمات، فإن تردد بشأن تنفيذها أو حتى فكر فيها مجرد تفكير فإن هذا قد يهدد الخطة كلها بالفشل، وأيضًا فإن تصرفه من تلقاء نفسه دون تعليمات قد يؤدي إلى نفس النتيجة، ولهذا فإن ضابط الجيش يربى منذ صغره على احترام التعليمات وإتباعها اتباعًا صارمًا لا هوادة فيه.

أما رجل الشرطة فهو رجل قانون في المقام الأول، مهمته الأصلية هي تنفيذ القانون، قيادته هي القانون، يأخذ تعليماته من القانون، بينما تقتصر مهمة قياداته الميدانية على توزيع الأدوار، والتأكد من أن كلاً يقوم بعمله كما ينبغي.

ولكن هذا الاختلاف يبدو وكأنه لا وجود له لدينا، فيبدو ضابط الشرطة رجلاً عسكريًّا تمامًا مثله مثل ضابط الجيش.

فأنت في العمل (وخصوصًا في المباحث) عندما يعترضك موقف فيه مخالفة ما للقانون، فإنك لست مطالبًا باتخاذ الإجراء القانوني اللازم! لا... بل أنت مطالب في المقام الأول بالاتصال التليفوني برئيسك لكى تتلقى التعليمات بشأن كيف تتصرف وماذا تفعل، وقد يمتد هذا الاتصال التليفوني (حسب الموقف وحسب مرتكبه) إلى سلسلة من الاتصالات التليفونية المتصاعدة قد تصل للوزير شخصيًا، وتأتي لك التعليمات في كل الأحوال بأمر من

اثنين: احبسه... أو سيبه!، وليس للقانون أي وجود في المشهد من الأساس.

والاعتراض على التعليمات أمر ليس واردًا في ذهنك، فأنت - كما قلت لك- رجل عسكري، تنفذ التعليمات، ونادرًا ما يكون رئيسك متساهلاً فيسمح لك بإبداء رأيك (إن كان لديك رأي).

يعكس هذا ما يتلونه على سمعك مرارًا وتكرارًا:

- أهم حاجة في الشغل بتاعنا سرعة الإخطار!

فليس سرعة التصرف، أو حسن التصرف مثلاً هم أهم شيء، ولكنه سرعة الإخطار، ويبررون ذلك بأن الضباط لا يجيدون في الغالب حسن التصرف، وبالفعل فإن أغلب الضباط لا يجيدون حسن التصرف، ولكن هذا سببه الرئيسي جهلهم بالقانون.

فمثلاً (صدق أو لا تصدق) فأنا لم أكن أعلم شيئًا عن قانون الطوارئ إلا عندما أثيرت أزمة "خالد سعيد"، وصدق أو لا تصدق أيضًا، فحتى قامت الثورة، لم يكن أغلب الضباط يعلم أن هناك من الأساس ما يسمى بقانون الطوارئ، آه والله العظيم، حتى أنهم فوجئوا بأن الإعلام يهاجمهم ويتهمهم بشدة بسوء استخدام قانون الطوارئ، وهم لا يعلمون أصلاً ما هو قانون الطوارئ هذا، وما الفارق بين وجوده من عدمه! وهذا على سبيل المثال وليس الحصر.

ولهذا فإنه عندما تصدر للضابط تعليمات مخالفة للقانون، فإنه لا يهتم، بل إنه في الواقع، لا يلاحظ هذا أصلاً.

وكل ما سبق يعكس أمرًا أكثر أهمية وأشد خطورة، وهو أن الشرطة ظلت لعدة عقود (وربما لعدة قرون) تعمل كذراع للحاكم، وليس كذراع للقانون، فمثلما تعمل أنت فقط بتعليمات من يرأسك، يعمل هو كذلك بتعليمات من يرأسه، وهكذا حتى يصل الأمر متسلسلاً في النهاية للوزير، الذي يعمل هو أيضًا بتعليمات رئيس الجمهورية، ولذلك كنت دائمًا -وما زلت- أندهش من أولئك الذين يهاجمون الداخلية وفي نفس الوقت يدافعون عن النظام! فالداخلية هي ذراع النظام، ولا تتحرك الذراع من تلقاء نفسها دون إرادة صاحبها، أما أن الشرطة تعمل في أي وقت من الأوقات من تلقاء نفسها، أو تطبق سياستها الخاصة، فهذه خرافة كبيرة.

وهكذا تجد القانون في بلادنا مجرد أداة في يد الحاكم يستخدمها وقتما يشاء مع من يشاء، ويمنعها وقتما يشاء عمن يشاء.. وكأنه إله! ده حتى الإله نفسه يا أخي لا يعطي لنفسه هذا الحق.. فإن للكون قوانين يسير عليها، ولن تجد الله مثلاً يدع الشمس تشرق على المؤمنين به، بينما لا تشرق على الكافرين.. ولكنك تجد الحكام في بلادنا قد تكبروا، فأعطوا أنفسهم هذا الحق بمنتهى الوقاحة والتجبر.

بعد استقالتي، وفي إطار بحثي عن عمل، سألني أحد الأصدقاء وهو يفكر أين يبحث لي عن عمل:

- أيوه طيب يعني إنت بتعرف تعمل إيه؟؟

ففكرت قليلًا، ثم قلت له:

- سرعة الإخطار!!

الواقفون على الطريق

مشهد :
صيف ٢٠٠٦ - كمين عبود

أجلس إلى مكتبي في الشارع! أقلب القلم في يدي كعادتي عندما أفكر.. أفكر في الشيء واللاشيء في آن واحد.. اقترب مني الأمين "عادل"، وهو أمين شرطة يكبرني في السن بعدة أعوام، وهو أكثر الأفراد الذين عرفتهم عقلًا، وأكثرهم عذابًا في نفس الوقت.. وضع كرسيًا أمامي وجلس:

- إيه يا باشا مالك؟
- مفيش.
- بتفكر في إيه؟
- ولا حاجه.
- طيب يا باشا دلوقتي م الآخر، العيال عايزة تقف تشتغل ع الطريق شوية.
- وهما عارفين إني مش هوافق، فقالوا لك إنت تكلمني؟
- بالظبط كده.. هما عارفين بقى إننا عشرة وهاعرف اتفاهم

مع سيادتك.

- طب وبعدين يا عادل؟! ما أنت عارف إنه غلط.

- يا باشا ماتقلقش، مش هايعملوا مشاكل، وأنا واقف معاهم.

- يا عادل مش ع المشاكل.

- أومال على إيه يا باشا؟

- على إنه غلط يا عادل.. الناس اللي بتتقلب دي ذنبها ف رقبتي أنا.

- يا باشا وإنت ذنبك إيه بس؟

- ذنبي إن أنا المسئول.

- يا باشا مسئول إيه بس ما تجننيش.. طب تصدق وتآمن بأيه؟

- لا إله إلا الله.

- أنا والله العظيم ما في ف بيتي عشرة جنيه على بعض، أربع عيال وأمهم سايبهم في البلد مامعهمش عشرة جنيه.. والأفراد دي كلها كده، ده أنا لو حكيت لك قصة كل واحد فيهم هانكّدك.. هاقولك إيه بس ما أنت فاهم يا باشا اللي فيها!!

- أيوه يا عادل أنا فاهم، بس هو ده معناه يعني إنهم يقفوا يقلبوا الناس؟

- ما هو يا باشا دلوقتي حط نفسك مكانهم، عربيات مرسيدس وبي إم عماله تعدي عليهم ليل نهار، لناس هما عارفينهم كويس، وعارفين إنهم معرصين وحرامية وتجار مخدرات وولاد قحبة، وفي الآخر مابيحصلهمش أي حاجة لأنهم بيقبَضوا اللي فوق زي ما سيادتك عارف، ماجتش بقى ع الغلابة اللي

واقفين طول النهار ع الطريق.. وياريتهم لاقيين ياكلوا، دي حالتهم بالبلا.

- والله يا عادل ما عارف أقولك إيه!!

- معلش يا باشا.. هي ساعة واحدة بس.. وأنا هاقف معاهم مش هاخليهم ييجوا على حد غلبان.

- ما هو يا عادل أصله مش حل.

- يا باشا ما أنا عارف والله العظيم إنه مش حل.. بس قول لي والنبي إيه الحل؟!

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. خلاص.. بس هي ساعة واحدة بس.

بعدها بفترة.. أصيب الأمين "عادل" باكتئاب حاد.. وفصل لانقطاعه عن العمل!

هي فوضى

تميزت الأعمال الفنية عبر تاريخ الفن المصري في تصويرها للشرطة بالبلاهة الشديدة، وبالمبالغات الساذجة، الأمر الذي أسهم في تكوين صورة ذهنية مبالغ فيها لدي الشعب عن الشرطة، سواء كانت هذه الصورة سلبية أو إيجابية، فإن كانت لديك صورة سلبية عن الشرطة كونتها من الميديا، فاعلم أنها حتمًا صورة مبالغ فيها، ونفس الشيء إن كانت لديك صورة إيجابية، فاعلم أنها أيضًا صورة مبالغ فيها، فالصورة ليست بهذا الشر الذي يتخيله الكثيرون، وليست أيضًا بهذه الجدية التي يتخيلها البعض، وإنما الصورة في حقيقة الأمر يغلب عليها العبث والهزل والفوضى.

ومع هذا فإن أكثر الأفلام التي استطاعت الاقتراب من الصورة الحقيقية للشرطة كان فيلم "هي فوضى" ليوسف شاهين وخالد يوسف، وبالرغم من عبقرية الأول الفذة وواقعية الثاني الفجة، إلا أنهما أيضًا لم يستطيعا تقديم الصورة السليمة غير المبالغ فيها عن الشرطة، إلا أنهما كانا أكثر من اقترب منها على الإطلاق،

وحتى أخطاءهما في هذا الفيلم لم تكن أخطاءً ساذجة بقدر ما هي - فيما أعتقد - قد وضعت عمدًا للضرورة الدرامية أو الرمزية، فباستثناء أن هناك وكيل نيابة يذهب إلى القسم ليفتش عليه شاخطًا ناطرًا في من فيه، وأن هناك معتقلين سياسيين يحتجزون في القسم فضلاً عن أن يتم تعذيبهم بداخله، فإن باقي ما رسماه كان مقاربًا للواقع إلى حد كبير، خصوصًا في رسمهما للشخصيات، فقد كان مأمور القسم نموذجيًا، وأيضًا رئيس المباحث لم يكن سيئًا، ولكن من كان رائعًا بحق هو الشخصية الرئيسية.. الأمين "حاتم"!

ولفت نظري بشدة بعد عرض هذا الفيلم، رد فعل الضباط عليه، فقد أثار الفيلم استياءهم الشديد، فقط بسبب مشهد وكيل النيابة الذي يشخط في المأمور ورئيس المباحث، صحيح أنه بالفعل مشهد غير واقعي بالمرة، إلا أنه هو فقط ما أثار استياءهم، بالرغم من كل ما يحتويه الفيلم من بلاوي.. ولكن ما كان أكثر لفتًا للنظر، وأكثر إثارة للدهشة، هو رد فعل أمناء الشرطة، فقد جاء رد فعلهم على العكس تمامًا من رد فعل الضباط، فقد أثار الفيلم إعجابهم بشدة، حتى صار الواحد منهم يشاهده أكثر من مرة، وظلوا لفترة طويلة ليس لهم حديث عن غيره، فهم لم يروا أن الفيلم يحمل لهم أي إساءة! بل على العكس تمامًا رأوا أنه قد أنصفهم!! فقد رأى كل منهم في شخصية "حاتم"، حلمه ومثله الأعلى!!

وأمناء الشرطة هؤلاء.. هم الفئة الأهم فيما يسمى في الداخلية بالأفراد، ذلك المصطلح الذي يشملهم هم وكل من هو دون الضابط من مندوبي الشرطة والمساعدين ومجندي الدرجة الأولى (الذين يطلق على الواحد منهم لفظ "شُرطي".. "شرطي نظام" إن كان تابعًا للنظام، ويطلق عليه العامة لفظ "شاويش"، أو "شرطي بحث" إن كان تابعًا للمباحث وهو من يطلق عليه العامة لفظ "مخبر") وبشكل عام فإن الفارق بين فرد النظام وفرد البحث في كل فئات الأفراد لا يختلف كثيرًا عن الفارق بين ضابط النظام وضابط البحث.

أما عن الفارق بين فئات الأفراد فلا يوجد فارق إداري جوهري يستحق ذكره، أما الفارق في واقع الأمر فيتمثل في أن أمناء الشرطة والمندوبين أكثر رقيًا وأكثر توحشًا في نفس الوقت، أما المساعدين والصولات – بالإضافة لكبار السن من الأمناء – فهم أكثر عقلاً وفي الغالب تكون لديهم خبرة كبيرة يعوَّل عليها، أما مجندو الدرجة الأولى فهم غالبًا غلابة، خاصة النظاميين منهم.

(هذا كله خلافًا لمجندي الدرجة الثانية، وهم العساكر من مجندي القوات المسلحة الذين يتم توزيعهم على الشرطة).

والأفراد بشكل عام دائمًا ما كانوا مثار شكوى المواطنين، خاصة بسبب طريقتهم في المعاملة، وتتلخص مشاكلهم في عدة نقاط:

أولاً: مرتباتهم الضعيفة جدًا (وهي مشكلة شعب بأكمله) والتي لا تكفيهم بالطبع، بالإضافة إلى الجزاءات عمّال على بطال، والتي تقضي على المرتب الهزيل بطبعه، مما يدفع بعضهم لامتهان مهنة أخرى بجوار الشرطة (خاصة الدرجة الأولى) مما يجعل الواحد منهم قادمًا للعمل، للبحث عن خدمة يمكنه النوم فيها إذا كانت ليلية، أو يمكنه عمل مصلحة فيها إذا كانت صباحية.. والمصلحة هي الأخرى جزء أصيل من ثقافة الأفراد، فهم يعتبرونها حقًا أصيلاً لهم، ولكنهم فيها يختلفون، فهناك المفتري اللي بيكوِّن نفسه، وهناك الغلبان الذي يبحث فقط عن مصاريفه اليومية البسيطة.. هناك من يقترب في أدائه من قطّاع الطرق، وهناك من هو أقرب للمتسولين، وهناك من يعتمد على خبرته وحلاوة لسانه في تقليب الزبون.. ولأن الأفراد كانوا أقرب للثورة من الضباط فلم يتعالوا عليها، فإن قانون الشرطة الجديد قد قام بحل الكثير من مشاكلهم المادية والإدارية... بعكس الضباط الذين جعلوا بينهم وبين الثورة حائطًا سميكًا، فصاروا لا يشكلون خطرًا!

ثانيًا: النظرة الدونية التي ينظر بها الضباط لهم والتي تنعكس على المعاملة.. فمرارًا وتكرارًا تسمع هذه العبارة من الضباط وكأنها ماركة مسجلة:

– يا باشا دي عالم وسخة.. يبيعوا أبوهم عشان القرش.

(ورغم هذا فإنني شخصيًا وجدت أن المعاملة الإنسانية والعشرة الحسنة كثيرًا ما تجدي نفعًا.. لا أدري.. ربما لأني حنيِّن زيادة كما كان يقول الكثير من زملائي).. المهم أن هذه المعاملة

الدونية من قبل الضباط غالبًا ما تنعكس على معاملتهم هم مع الناس.

ثالثًا (وهو الأهم): أنهم في أغلبهم من بيئة ريفية بسيطة، فيندر أن تجد بينهم من هو من العاصمة أو المدن الكبيرة، والبيئة الريفية لمن لا يعرفها تقدس السلطة، ولا ترى شيئًا يعلو عليها، فيؤثر هذا في نفسية الأفراد بالطبع خاصة صغار السن منهم، فمثلاً عندما يجد شابًا مراهقًا نفسه بعد انتهائه من المرحلة الثانوية بعام واحد فقط، يقضيه في معهد أمناء الشرطة، وقد صار أهل قريته يلقبونه بالباشا (والباشا راح، والباشا جه) وصار يُحسب له حساب، فإن هذا أمر كفيل بإفقاده صوابه، ولن يتقبل بالطبع منك كمواطن عادي عدم اعتباره "باشا"، هذا فضلاً عن أنه يجد نفسه فجأة لديه شيء من السلطة في المدينة بأضوائها المبهرة بالنسبة إليه، مما يدفعه لارتكاب الكثير والكثير من الحماقات.

كان مشهد "الحواوشي" في "هي فوضى"، من أكثر المشاهد التي رأيتها تعبيرًا في الأفلام المصرية..

خيال المآتة

"خيال المآتة.. عبارة عن دمية بسيطة من القش على هيئة إنسان، يصنعها الفلاح ويقوم بوضعها وسط الحقل، كي تظنها الطيور شخصًا حقيقيًا، فتخاف وتمتنع عن نزول الحقل لأكل المحصول".

مشهد:

فبراير ٢٠١٠ - خدمة تأمين أحد الفنادق بالقاهرة الكبرى

أجلس داخل سيارتي الخاصة أمام أحد الفنادق ذات الخمس نجوم بالعاصمة القاهرة، منهمكًا في قراءة كتاب لا أذكر ما هو، وفجأة طرق أحد المخبرين زجاج السيارة بعنف، مبديًا علامات الفزع، قائلاً في لهفة:

- باشا.. باشا.. مفتش الداخلية!

فغادرت السيارة مانعًا نفسي من الهرولة في محاولة لتصنع اللامبالاة، فوجدت ذلك المشهد المعتاد لمفتش الداخلية ببدلته المدنية الكاملة، ومن ورائه السكرتير منهمكًا في التدوين في

الأجندة التي يحملها، ذلك المشهد الذي يذكرني بمشهد الضباع وهي تنقض على فريسة مفترسة بالفعل.. بادرني مفتش الداخلية:

- إنت كنت فين؟؟

- كنت بامر على الخدمات سيادتك (ملحوظة: الخدمات كلها واقفة قدامه).

- وفين ظابط النظام اللي معاك؟

خرج ضابط النظام في هذه اللحظة من مكمنه باحثًا عن الباريه (غطاء الرأس) فأشرت نحوه:

- أهه سعادتك.

نظر إليه المفتش بازدراء:

- إنت كنت فين؟

- كنت في الحمام سعادتك.

- وفين باريهك؟

- موجود سعادتك.

أتي إليه أحد الأفراد بالباريه فارتداه، فالتفت المفتش إليّ:

- إيه قوام الخدمة هنا؟

- سعادتك إحنا معانا اتنين فرد نظام، وإتنين فرد بحث.

- وتوزيعهم إيه؟

- سعادتك فيه اتنين على الضلع الخلفي، وإتنين في اليمين، وإتنين في الشمال، وإتنين هنا.

- بس كده يبقوا تمانية.

- أيوه سعادتك أصل القسم مابعتش النهارده غير أربعة.

- ليه؟

- ماعرفش سعادتك.
- طب وإنت أخطرت؟
- أيوه سعادتك، أخطرت وعملت بند في الدفتر.
- طب هات الدفتر.

قمت بإرسال أحد أفراد البحث (المخبرين) لإحضار الدفتر، بينما أشار هو إلى أحد أفراد النظام، فأتاه هرولة.. فسأله:

- إنت تبع قسم إيه؟

فردَّ فرد النظام مرتعشًا:

- قسم القاهرة تاني سعادتك.
- وبقيت الأفراد ماجوش النهارده ليه؟
- أصل سعادتك فيه خدمة ماتش في إستاد إنبي والخدمة كلها راحت هناك.
- وإنت معاك كام طلقة؟
- خمسين سعادتك.
- ضربت آخر مرة نار إمتى؟ (يقصد التدريب على الرماية)
- من حوالي ييجي سنتين سعادتك.
- أمممم، وإنت جزمتك وسخة ليه؟
- ما هو ما هو... أصل أصل...
- إيه؟؟

قاطعت أنا هذا الحديث الشجي قائلاً لمفتش الداخلية:

- معلش سيادتك هايلمعها حالاً.

ثم تحولت إلى الفرد شاخطًا فيه:

- اجر بسرعة روح لمع جزمتك.

فاختفي فرد النظام من أمامنا، وفي نفس اللحظة أتي إلينا المخبر بالدفتر، أعطيته لمفتش الداخلية مشيرًا إلى البند، فارتدى نظارة القراءة متطلعًا في الدفتر باهتمام، مبديًا أقصى علامات الحكمة، ثم سألني:

- وإنت في الخدمة دي بقالك قد إيه؟

- حوالي ٦ شهور سعادتك.

- أمممم، ويتشتغلوا كام ساعة في اليوم؟

- اتناشر ساعة سعادتك، ومابنخدش أجازات، تصور سيادتك أنا بقالي تسع سنين ماخدتش أجازة أسبوعية!

- وإنت سلاحك فين؟

- أهه سعادتك.

أخرجته له فتطلع إليه ثم سألني:

- معاك الخزنه الاحتياطي؟

- لأ سعادتك. إحنا سعادتك أصلاً مابنستخدموش، وبعدين...

- وإنت دقنك طويلة ليه؟

- مابلحقش سيادتك أحلقها، أنا سعادتك أصلي باروح البيت يا دوب آكل وأنام علشان ألحق أصحى آجي تاني، ولو حلقتها هاتأخر وأتغيب... بقالي سنين سيادتك على كده.

دخل علينا في هذه اللحظة مشرف الخدمة النظام (بعد أن رن له ضابط النظام) وهو برتبة عقيد، أدى التحية العسكرية في احترام بالغ، وعرف بنفسه، فسأله مفتش الداخلية:

- وإنت إيه الخدمات اللي عندك هنا؟

- سعادتك في هيللي بيللي، وهيللي هيللي، وهيلا بيلا.

- طيب والهيللي بيللي دول فين؟
- هانده لسيادتك عليهم حالاً.

فناداهم في اللاسلكي فلم يرد عليه أحد، فأخرج تليفونه المحمول محرجًا واخذًا جنب وقام بالاتصال بهم... دخل علينا في هذه اللحظة مشرف خدمة البحث (بعد أن قام أحد المخبرين بالاتصال به) وهو برتبة مقدم، أدى هو أيضًا التحية العسكرية معرفًا بنفسه، ثم دخل في وصلة طويلة من الرغي مع مفتش الداخلية محاولاً كروتته.. انسحبت أنا على جنب أنا وضابط النظام (الصامت والعامل عبيط منذ بداية المشهد) ووقفنا نتبادل الرغي سويًا في أي كلام.. بدأت الخدمات بعدها في المجيء جمعًا أو فرادى، ثم أتي بعدها رئيس الخدمة برتبة عميد (بعد أن قام أي حد بالاتصال به)، أدى التحية العسكرية.. وعرف بنفسه.. ثم انضم لحديث الهيللي بيللي الممتع.

وهكذا حتى انصرف مفتش الداخلية، فقام كل مشرف بإخطار رئيسه المباشر تليفونيًا متلقيًا قدرًا لا بأس به من اللعنات، وقام رئيس الخدمة بالاتصال بالعمليات لتنشيط باقي الخدمات على الجهاز، ثم انصرف كل إلى حال سبيله، وعدنا أنا وضابط النظام والأفراد للوضع الذي كنا عليه.

بعد أسبوع وجدت ضابط العمليات يتصل بي كالعادة ليخبرني أنه جاءت لي إشارة بالتوجه فورًا إلى قسم التحقيقات، فطنشت لعدة أيام (وأحيانًا لعدة أسابيع وأحيانًا لعدة شهور، لتجميع

التحقيقات)، ثم ذهبت لأجد مذكرة وتحقيقًا لي بأن دقني كانت طويلة وبأني لا أحمل الخزنة الاحتياطي، ومذكرة وتحقيقًا لضابط النظام بأنه لم يكن مرتديًا الباريه.

يتكرر هذا المشهد - بحذافيره أو مع تغير بسيط في التفاصيل - مرارًا وتكرارًا إلى ما لا نهاية...

في انتظار المرور

منذ أن تولى "حبيب العادلي" وزارة الداخلية، وهو يعطي الدعم الكامل سواء المادي، أو المعنوي، أو حتى في نظام العمل لجهازين فقط: أمن الدولة، والأمن المركزي، وهذا بالطبع يعكس اهتمامه بالأمن السياسي، أما فيما يتعلق بالأمن الجنائي، أو الأمن العام، وهو الذي يعمل به القطاع الأكبر عددًا من الضباط والأفراد، فقد كان له استخدام واحد فقط لديه.. وهو الانتشار، أو ما كان يسميه هو: التواجد الأمني.

فقد كان لديه هوس أن يرى الناس في ذهابهم وإيابهم أكبر كم ممكن من ضباط وأفراد الشرطة، حتى وإن كان هذا على حساب العمل الأمني نفسه، فبدأ في نشر الضباط والأفراد بكثافة شديدة في كل مكان فيما يسمى بالخدمات التأمينية.. والخدمات التأمينية تلك هي في الأساس لتأمين المنشآت الهامة أو الأحداث الهامة.. ولكنها في عهده صارت لتأمين أي شيء يبجي على دماغك، وصارت القيادات إرضاءً له تتفنن في اختلاق الأهمية لأي شيء من العدم لكي تعين عليه خدمة، ثم بعد ذلك تقوم

بتكثيف العدد في كل خدمة حتى يحدث عجز! فتقوم بزيادة ساعات العمل وتقليص الإجازات - حتى صارت غير موجودة أصلاً - لكي تسد هذا العجز!! ثم تتغير القيادات كل حين لتأتي قيادات جديدة فتقوم بزيادة الخدمات بدورها، حتى صار الأمر إلى أن (أي حد جاي من وراه مصلحة يعين له خدمة)!! والطريف أنك في هذه الخدمات ليس لك الصلاحية غالبًا في فعل أي شيء أو التحرك حتى من مكانك، فلو استنجد بك مواطن مثلاً فليس في يديك ما تقدمه له سوى إخطار النجدة، وهو ما كان من الممكن أن يفعله المواطن بنفسه!!

ولك أن تتخيل وقوفك كخيال المآتة لا تفعل أي شيء مفيد - أو حتى غير مفيد- لشهور ١٢ ساعة يوميًا أمام باب فندق بدعوى تأمينه (رغم أن هناك إدارة خارج إطار الأمن العام تدعى شرطة السياحة هذه هي مهمتها، ولها مكتب فخم في كل فندق يعمل فيه العديد من الأفراد والضباط). أو لك أن تتخيل وقوفك اليوم بطوله في شارع صلاح سالم بدون أي لازمة لكي يمر عليك في لحظة ما موكب الرئيس الفارغ (فالرئيس كان يستخدم الطائرة في تنقلاته، بينما موكبه ذلك الذي كان يوقف حال البلد كان غالبًا ما يكون فارغاً). أو لك أن تتخيل وقوفك يوميًا فوق كوبري أكتوبر بدون أي هدف على الإطلاق تحت مسمى "خدمة ملاحظة حالة". أو لك أن تتخيل وقوفك يوميًا طوال اليوم أمام مطعم أسماك! حقيقي!!

وهذه الحالة من الشعور بالعبثية كانت دائمًا ما تدفع الأغلبية إلى التزويغ أو على الأقل إلى النوم، وصارت الجزاءات مع كثرتها ومع التعود عليها لا تردع، مما دفعهم إلى تعيين ضباط أكبر في الرتبة كمشرفين على كل خدمة لمنع تزويغ الضباط منها، ثم صاروا بعد ذلك يعينون قائدًا أكبر في الرتبة للخدمة لمنع تزويغ الضباط والمشرفين، هذا مع تعيين مرور لكل مجموعة من الخدمات يمر عليها، ثم مرور لكي يمر على المرور، ثم مرور لكي يمر على المرور الذي يمر على المرور، هذا بالإضافة إلى إنشاء إدارة تسمى "إدارة التفتيش" يعمل بها مجموعة من اللواءات يطلق على الواحد منهم لقب "مفتش الداخلية" مهمته الكبرى هي المرور على الخدمات، ويقيم الواحد منهم بعدد الجزاءات التي يوقعها.

وتلك المرورات لا يوجد أي هدف منها في الغالب سوى التأكد من أنك موجود ومن أنك متخذ وضعية "خيال المآتة" كما ينبغي، تلك التي تسمى في التعليمات بـ"الظهور بالمظهر اللائق"، فلا يجب أن يجدك المرور جالسًا أو أن يجدك خالعًا لغطاء الرأس أو مرتديًا جزمة بانص مثلاً!

وعلى هذا الحال.. تجد الذين هم مهمتهم أمن المواطن العادي، في الشوارع طوال الوقت يطاردون بعضهم بعضًا، في حين لو اتصل هذا المواطن العادي بالنجدة، فسوف يذهب إليه أمين شرطة بالكتير!!

وهذا الإهدار الجنوني للوقت والمجهود، والذي لا يليق في الحقيقة سوى بمجموعة من المخابيل، يولد لديك مع الوقت شعورًا بالعبثية وفقدان المعني، وشعورًا بالمهانة وفقدان الكرامة، وشعورًا بالظلم واليأس من المستقبل، فالمستقبل يجلس بجوارك في صورة العميد قائد الخدمة، والذي سوف يخرج للمعاش في الحركة القادمة، أما أولئك الذين يحصلون على المستقبل المشرق، فهم غالبًا هؤلاء القلة الجالسة في المكاتب في الأماكن المريحة، والذين يعتقد المجتمع خاطئًا أن الداخلية كلها في مثل وضعهم.

وكل هذا كان سببه بالأساس سياسة الانتشار الأمني التي انتهجها "حبيب العادلي"، أو بمعنى أصح سياسة "الإرهاب الأمني"، فبينما أعطى الدعم كله لأمن الدولة والأمن المركزي لقهر أي معارضة سياسية، وللتغطية على فشل النظام بشكل عام، استخدم الكتلة الرئيسية الكبيرة المسئولة عن العمل الجنائي – عن طريق هذا الانتشار الفارغ – في إعطاء المجتمع شعورًا زائفًا بأننا كثيرون وفي كل مكان، في حين أن هذا الانتشار في حقيقته لم يكن يحوي في داخله أي جدوى على أرض الواقع، مما أدى في النهاية إلى أن صارت الداخلية –على الأقل في الكتلة الرئيسية منها– مثل بالون ضخم يوحي لمن يراه بالكثير، إلا أنه في الواقع كان فارغًا من الداخل.. وفي رأيي أن الشرطة لم تنهر في الأحداث الأولى للثورة.. بل إنها في واقع الأمر انكشفت.

القصرية

مشهد:
الأربعاء ٢٦ يناير ٢٠١١ – أحد طرق القاهرة الصحراوية

أقود سيارتي في طريقي للكمين، متأخرًا كعادتي عن الخدمة، مستغرقًا في التفكير فيما يحدث في البلاد هذه الأيام.. استرعى انتباهي لأول مرة الصورة الطولية العملاقة لحسني مبارك القائمة على جانب الطريق.. كانت أول مرة أنتبه إليها رغم أنني أمر عليها تقريبًا كل يوم.. كم هي كبيرة! وكم هي محبطة! وكم هي مستفزة ومثيرة للغضب! فتساءلت بيني وبين نفسي: هل يسقط أخيرًا هذا العملاق؟ هذا العملاق القابع على نفسنا منذ أن جئنا للحياة.. "مصر مبارك".. "أكاديمية مبارك".. "مستشفى مبارك".. "محطة مبارك".. "جنة فواكه مبارك"..."جمال مبارك".. كله مبارك.. حتى صرنا من جهل إلى أجهل، ومن فقر إلى أفقر، ومن مرض إلى أمرض!

قطع عليَّ أفكاري وصولي إلى الكمين.. قام المجند بفتح

السدادة لكي أمر، فدخلت وقمت بركن سيارتي خلف الكمين.. توجهت إلى مكتب العمليات.. سلمت على فرد الاتصال فتناول الجهاز كالعادة:

- عمليات الإدارة.
- ابدأ الإشارة.
- استئناف الرائد محمد محمود خدمة ١٢٠.
- تمام مع الشكر.

قمت بتحضير نفسي في دفتر الأحوال ثم سألت فرد الاتصال السؤال المعتاد إن كان هناك شيئًا جديدًا فأجاب بالنفي.. فتركته وتوجهت إلى مكتب مفتش مباحث طريق السويس (المجاور لمكتب العمليات).

دخلت إلى مفتش المباحث العقيد "أحمد عبد الهادي"، فوجدته جالسا كعادته خلف مكتبه، بينما كانت تقف أمامه فتاة في عمر المراهقة، يبدو على ملامحها وهيئتها البؤس والضياع، كان يحتجزها بالتأكيد بدعوى الكشف عن صحيفتها الجنائية! بينما كان يجلس أمامه كل من النقيب "محمد صفوت" مشغولاً بهاتفه المحمول، والملازم أول "إسلام تهامي" متابعًا الحديث بين المفتش والفتاة. سلمت عليهم، فبادرني مفتش المباحث:

- إيه إللي أخرك كده؟
- يعني يا باشا هاجي بدري أعمل إيه؟
- طب أقعد.. إنت نازل إيه النهارده؟
- ١٢٠.

جلست بجوار "إسلام"، وأخذت أتابع الأحداث على جهاز

التلفاز المفتوح أمامهم على إحدى القنوات الإخبارية دون أن يلتفت إليه أحد، كان ينقل الأحداث من مدينة السويس تارة ومن القاهرة تارة أخرى.. كانت أحداثًا عنيفة لم أر مثلها من قبل.. فقلت لمحمد صفوت:

- اللي بيحصل ده مش عادي.

فنظر لي مستفهمًا.. فأشرت لشاشة التلفاز.. فنظر إليها، ثم عاد مرة أخرى ينظر لهاتفه المحمول دون أن يرد.. فالتفتّ إلى "إسلام" فوجدته يضحك بشدة وهو يتابع الحوار بين المفتش والفتاة الواقفة أمامه.. فتابعت الحوار:

- يعني إنتي يا سلوى سيبتي البيت بعد ما جوز أمك اغتصبك.

- ما اغتصبنيش يا باشا.. هو حاول بس.

- بس ماعرفش.

- أيوه.

- وبعدين عملتي إيه؟

- روحت أقعدت عند خالتي شويه، وبعد كده مشيت.

- ليه؟ جوز خالتك هو كمان اغتصبك؟.. ها ها ها ها.

شعرت بالضياع.. أو بمعنى أصح.. بالغربة.. فقمت من مكاني مغادرًا المكتب.. وتوجهت إلى مكتب قائد الطريق (المجاور لمكتب مفتش مباحث الطريق).

حين دخلت إلى قائد الطريق، العميد "شريف المستكاوي"، وجدته جالسًا بمفرده يتابع على جهاز التلفاز أمامه أحد أفلام

"تبيلة عبيد" (الراقصة والسياسي على ما أذكر).. سلمت عليه، فدعاني للجلوس، فجلست:

- إزيك يا باشا؟

- إزيك يا محمد بيه؟

- الحمد لله يا باشا تمام.. سيادتك عامل إيه؟

- الحمد لله.. نحمده.

- شفت يا باشا اللي بيحصل؟

- إيه اللي بيحصل؟

- اللي بيحصل في البلد!

- إيه اللي بيحصل في البلد؟؟ آه.. قصدك المظاهرات؟.. يا عم دي عالم فاضية.

وصمت قليلاً ثم قال:

- شفت إنت الراجل مدير الإدارة ابن الـ... مش عايز أغلط بس أستغفر الله العظيم.

- ماله؟!

- قال مش عاجبه قصرية الزرع اللى أنا حاططها على أول الكمين!

- أنهي دي يا باشا؟

- قصرية الزرع اللي على أول الكمين عند التنده.. ماخدتش بالك منها وإنت داخل؟

- لا والله يا باشا ماشوفتهاش.. ومش عاجباه ليه؟

- أنا عارف!! بيقول لي هو احنا في مشتل؟!

وصمت برهة ثم أضاف في أسى:

– ده أنا والمصحف جايبها بفلوسي م الراجل اللي عند طلعة الدائري.. قلت علشان لو مدير الأمن مر علينا واللا حاجه واللا الحكمدار يلاقي حاجة شكلها حلو كده وهو داخل ينبسط..

ثم نادى المجند الخاص به:

– يا سعيييد.. ولا يا سعيييييد.

فدخل "سعيد".

– أيوه يا باشا.

– روح هات القصرية علشان نفرجها لمحمد بيه.

– أنهي قصرية دي باشا؟؟

– ياد قصرية الزرع اللي أنا جايبها إمبارح.

– أيوه بس دي تقيلة أوي سعادتك.

– خد جوز عساكر يشيلوا معاك.

فتدخلت في الحوار:

– خلاص يا باشا.. هاروح أنا أشوفها بنفسي.

– ماتستنى الواد هيجبها لك.

فقمت من مكاني:

– مش مشكلة يا باشا.. هاروح أنا أشوفها.

– طب ماشي.. بس ابقى قول لي والنبي إيه رأيك كده عشان أنا عارفك فنان.

– حاضر يا باشا عيني.

غادرت المكتب متوجهًا إلى مكتب مفتش المباحث مرة أخرى.. فوجدت المشهد هناك قائمًا كما هو باستثناء فقط أنني وجدت ضابط مباحث الكمين الرائد "أحمد عمار" واقفًا أمام

المفتش، واضعًا أمامه على المكتب صندوقًا مليئًا بمجموعة مختلفة من شرائط المقويات الجنسية، يبدو أنه ضبطه مع أحدهم، كان ينوه لمفتش المباحث عن أحد الأصناف مشيرًا بإبهامه بعلامة الجودة قائلاً:

- الأحمر ده بقى يا باشا.. ميه ميه.

حدث في عيد الشرطة

١- التاريخ

في يوم ٢٥ يناير عام ١٩٥٢، وبعد أن كانت العلاقة بين الحكومة البريطانية والحكومة المصرية برئاسة "مصطفى النحاس" قد وصلت إلى طريق مسدود، صدرت الأوامر لقائد القوات البريطانية في منطقة القناة باحتلال مدينة الإسماعيلية، فتوجه في صبيحة ذلك اليوم بدباباته ومجنزراته وعدد هائل من القوات لاحتلال مقر محافظة الإسماعيلية، وأرسل إنذارًا إلى قوات الشرطة التي تحمي مبنى المحافظة، يطالبهم بتسليم أسلحتهم، وتسليم مبنى المحافظة له، وإلا سوف يستخدم ضدهم القوة، فاتصل اللواء "أحمد رائف" قائد قوات الشرطة بالإسماعيلية، بوزير الداخلية "المدني" آنذك "فؤاد سراج الدين"، فأصدر تعليماته له بالمقاومة.. ورغم قلة عدد قوات الشرطة حينها، وبدائية أسلحتهم، وعدم التكافؤ الصارخ بينهم وبين القوات البريطانية، إلا أنهم قاوموا بشجاعة حقيقية، وظلوا يقاتلون قتالاً عنيفًا حتى نفذت ذخيرتهم عن آخرها.. قتل منهم في ذلك اليوم الدامي ما يقرب من مائة، وتم أسر الباقين.. وتخليدًا لذكرى هذه المعركة الباسلة، أعلن يوم

٢٥ يناير من كل عام عيدًا للشرطة المصرية.

٢- الشهيد

في السنوات الأخيرة لحكم مبارك، بدأت تحدث تغيرات تدريجية في المجتمع المصري، ظهر في الصورة نجل الرئيس "جمال مبارك" هو ورجال أعماله، وصار الحديث عن التوريث -رغم إنكاره- أمرًا واقعًا، وبدأ هو ومن معه في تطبيق سياسات اقتصادية أدت إلى توسيع الفجوة أكثر فأكثر بين الأغنياء والفقراء، وأيضًا بدأت في هذه الفترة بالتوازي تزداد حركة النشاط الثقافي والسياسي في المجتمع، فبدأت تزدهر حركة النشر، وبدأت أعمال أدبية مختلفة في الظهور، كما بدأت تظهر المراكز الثقافية هنا وهناك، والتي أفرزت العديد من المواهب الفنية والأفكار الإبداعية الجديدة، كما بدأت الحركات السياسية والحقوقية تنشط مثل كفاية و٦ أبريل والجمعية الوطنية للتغيير وغيرها، كما ظهرت مواقع "فيس بوك" و"يوتيوب" و"تويتر"، التي أدت بدورها إلى سرعة جهنمية لم يكن أحد يتخيلها في انتشار الأفكار والمعلومات والفضائح، أدى كل ذلك إلى زيادة الوعي الثقافي والسياسي خاصة بين الشباب، وبدأت قطاعات أوسع تهتم بما يحدث في البلد.

وبين سياسات الإفقار المقرونة بفكرة التوريث وبين حركة زيادة الوعي الثقافي والسياسي، بدأت تظهر على السطح في التعليمات عبارة "مش عايزين مشاكل"! حتى أنها بدأت تدريجيًا تغطي على "فين المجهود؟"، ثم تحولت في نهاية الفترة إلى

"لـو المجهـود هايجيـب مـشاكل يبقـى مـش مهـم المجهـود!!".
ثـم بـدأت تـأتي تعليمـات لحوحـة (صـدق أو لا تـصدق) بحـسن معاملـة الجمهـور! ومنـع اسـتخدام التعـذيب أو الـضرب نهائيًـا فـي الأقـسام كوسـيلة للحـصول علـى الاعتـراف (لـم يـشمل هـذا أمـن الدولـة بـالطبع)... وهـذا كلـه لـيس لـه معنـى سوى أن النظـام كان خائفًا.

ولـذلك كانـت قـضية "خالـد سـعيد" محيـرة جدًّا بالنـسبة لـي ومـا زالـت، فهـي لـم تكـن قـضية سياسـية لكـي يحمـي الـوزير مرتكبيهـا، فكـان مـن الـسهل جدًّا أن يـضحي بـضابط أو اثـنين (ولـو بالباطـل) من أجل تـهدئـة الرأي العام، فحبيب العـادلي لـم يكـن يؤمِّن الحمايـة سوى لضباط أمن الدولة فقط، أمـا الـضابط الجنـائي فلـم يكـن يعنـي له الكثير، بـل فـي الواقـع لـم يكـن يعنـي لـه شيئًا أصـلاً، بعكـس مـا يعتقـد الكثيـرون، وكـان مـن الممكـن جـدًا أن يـضحي بهـم – وقـد فعلها أكثر من مرة قبل ذلك– من أجل تـهدئـة الـرأي العـام، فمـا هـو الـسر الخفـي فـي هـذه القـضية؟ هل كانـت هنـاك مـثلاً مثلمـا يقـول الـبعض شخـصية هامـة ضـلعًا فـي هـذه القـصة، أو تحديـدًا "ابـن شخصية هامة" خشوا عليه من التورط والفضيحة؟ لا أعلم.. هل كان الأمر مجرد عناد سياسي؟ ربما.. هل ابتلع الرجل لفافـة بـانجو بالفعل؟ لا أظن، فـإن لفافـة البـانجو ليـست بالـشيء الـذي يـسهل ابتلاعه.. ولكن على كل حال، أيًا كانت حقيقة قضية "خالد سـعيد"، فقـد كانـت بالفعـل الـشرارة الأولـى للثـورة.. حتـى علـى المـستوى الشخصي.

٣- ٢٥

قبل اندلاع الثورة بحوالي ستة أشهر، وفي أوج أزمة "خالد سعيد"، هالني كل هذا الكم الهائل من الكراهية الموجهة إلى الشرطة، فشعرت بالإهانة، ومن ثم بالغضب، فقمت وقتها بتأسيس "جروب" لضباط الشرطة على موقع "فيس بوك" داعيًا إياهم للتحاور، فربما يؤدي هذا إلى نتيجة ما، ولكن لم يشترك في هذا الجروب سوى خمسة ضباط فقط من بينهم اثنان من الضباط المتخصصين (ضباط مهندسين)! ولأن الجروب كان الوحيد من نوعه وقتها، ولأن هذا التوقيت كان موسم الغضب من الشرطة بامتياز، انهال علينا الأعضاء من كل صوب، وصرت أنا وزملائي الخمسة نتحاور ونتناحر مع المئات على مدار اليوم.

كان أغلب الأعضاء الذين انضموا للحوار شبابًا.. كان هناك بعض الأعضاء الذين تطوعوا من تلقاء أنفسهم للدفاع عن الشرطة، وهؤلاء هم من صاروا فيما بعد فلولاً، وكان هناك أعضاء من أولئك الذين يهاجمون الشرطة بينما يدافعون عن النظام، وهؤلاء كانوا أكثر من يفقعني على الإطلاق، وكان هناك بالطبع النساء اللاتي يرغبن فقط في التعرف على الضباط، أما أغلب الأعضاء (من الجنسين) فقد كانوا من الجانب الثوري، دخل أغلبهم بغرض التنفيس عن غضبه فينا وحسب، وقليل منهم من كان يرغب في الحوار، وفي البداية كان الهجوم عليّ والشتائم التي توجه لي كثيرًا ما تثير التعصب بداخلي (خاصة وأنني لم أفعل لهم شيئًا) فتدفعني إلى مبادلة العنف اللفظي بمثله، وإلى الدفاع

الأحمق عن الشرطة بالحق أو بالباطل، ولكن لم ألبث أن اعتدت هذا الهجوم وتمرست على تجاهله، واهتممت فقط بالحوار مع تلك القلة من الجانب الثوري التي ترغب في تبادل وجهات النظر، والحق أن هؤلاء كان لهم بالغ الأثر في تفكيري ومن ثم انضمامي للجانب الثوري شيئًا فشيئًا، فقد وجدت أنهم في حقيقة الأمر يشكون من نفس ما أشكو منه، وأنهم ببساطة: "إن جيت للحق.. معاهم حق"، بالإضافة إلى أنني لمست في كثير من هؤلاء الثوريين (حتى المندفعين الغاضبين منهم) شيئًا لم ألمسه في أي مجموعة من البشر من قبل قط: "الإخلاص".

وعلى هذا فبعد فترة - ورغم استمرار أغلب زملائي الخمسة في التحاور والتناحر مع البشر - بدأت في الانسحاب تدريجيًا مكتفيًا بمحاولة توضيح فكرة أن مشكلة هذا البلد في النهاية أكبر من أن تكون في ضباط الشرطة، أو حتى في جهاز الشرطة نفسه، فالمشكلة تكمن بالأساس في النظام!!

وحين جاء يوم ٢٥ الموعود وجدت نفسي أتمنى نجاحه بصدق، رغم أنني كنت أشك في ذلك.. فمن كان يتوقع قيام ثورة بميعاد مسبق؟!

٤- الفراغ

في مساء يوم ٢٥ يناير ٢٠١١، بدا لي أن التاريخ أخيرًا قد استيقظ من سباته الطويل، فقد مرت حياتنا كلها في رتابة تامة،

تتشابه الأيام مع بعضها البعض، والأسابيع كذلك، والشهور، والسنوات أيضًا، ولكن في ذلك المساء بدا أن كل هذا يتغير، هنا والآن.. وفجأة صار للوطنية شكل ورائحة ومذاق، حتى أن الأغاني الوطنية الكئيبة المملة، صارت فجأة لها معنى. ومرت الأيام التالية كالحلم، فقد بدا أن الشعب قد استيقظ من غفلته، وبدا أن هذا النظام الثقيل الضخم يترنح ويتهاوى، وفي مساء يوم ٢٧ يناير بدا واضحًا لي أن قوات الأمن المركزي لن تتحمل أكثر من ٢٤ ساعة أخرى، حتى أنني كنت أقول لمن حولي أن الأمن المركزي آخره بُكرة.

وعندما ظهرت قوات الجيش في مساء يوم ٢٨ يناير، تنفست البقية الباقية من قوات الأمن المركزي الصعداء، فقد كانت حياتهم على المحك، كما أنهم كانوا (قبل نزول الجيش) ينادون عبر أجهزة اللاسلكي لتلقي التعليمات، فلا يتلقون أي رد!

وبانهيار الأمن المركزي انهارت القوة الحقيقية للشرطة على الأرض، أضف إلى ذلك انقطاع الاتصالات، واختفاء القيادات، والذي لا يعني غير عجزهم عن إصدار أي تعليمات (مما يشي باختفاء الوزير شخصيًا) الأمر الذي أدى إلى انقطاع التعليمات، فصار كل ضابط وكل فرد يتصرف من تلقاء نفسه في عشوائية تامة، وصار الجميع فرادى في شارع تنتابه أعلى درجات الغضب من كل ما ينتمي للشرطة.. وم الآخر.. فإن ما حدث ذلك اليوم يتلخص في أن الشرطة كانت تعتمد طوال السنوات السابقة في

عملها فقط على خوف الناس منها، وعندما زال ذلك الخوف فجأة، انكشفت الشرطة وتبعثرت.

أنا شخصيًا في تلك الليلة كنت معينًا في خدمة من الخدمات المحدوفة على أطراف القاهرة، فلم أر الأحداث عن قرب (وكان هذا من لطف الله)، ولم أر ليلتها (دون مبالغة) سوى دبابات ومدرعات الجيش، وكان جل همي وقتها هو حماية الأفراد المسئول عنهم من التعرض للقتل، وحماية الأسلحة من السرقة، وبعد أن تأكدت من تأمينهم، انصرفت لحماية أسرتي.. ربما قد تراني مخطئًا في هذا وربما ترى أنني قد عملت الصح، إلا أنك في الحالتين لم تكن مكاني.

ومثلما أنك لم تكن مكاني.. فأنا وأنت لم نكن مكان ضباط الأقسام في تلك الليلة والليلة التي تلتها.

٥- الأقسام

سواء كان ما حدث عند الأقسام منظمًا أو عشوائيًا، فلا يستطيع أي منصف أن ينكر أنه كانت هناك جموع شعبية غاضبة لها ثأر عميق مع النظام بشكل عام، ومع وزارة الداخلية بشكل خاص، وأنها كانت لحظة الانتقام.. وإن كنت من الضباط فإنك سوف ترى فيما حدث دفاعًا شرعيًا، وإن كنت من الثوار سوف ترى فيما حدث جريمة قتل جماعي، وإن كنت مكاني فسوف تُصاب الارتباك والحيرة بكل تأكيد.

فلو أنك استمعت لضباط وأفراد الأقسام الحاضرين لسمعت قصصًا مرعبة، ولو استمعت للمواطنين الحاضرين لسمعت أيضًا قصصًا مرعبة.. ولو أنك كنت من الضباط والأفراد فسوف ترى أن ما حدث دفاعًا شرعيًا، خاصة أن الأقسام كانت تحتوي على الكثير من الأسلحة والكثير من المتهمين الجنائيين المحجوزين، كما أن حياتهم كانت مهددة، وقُتل منهم كذلك عدد غير معلوم وأصيب عدد آخر.. أما لو كنت من الثوار فإنك سوف ترى أن ما حدث هو جريمة قتل جماعي قتل فيها ثائرون عزل، خاصة وأن بعضهم أهين من قبل في تلك الأقسام، وبعضهم عذب، وبعضهم هتك عرضه، وخاصة أن عدد من قتل كان ضخمًا، وخاصة أن هناك العديد من الأمهات الغلابة الثكلى، والعديد من الأسر التي فقدت عائلها.

وهذا الارتباك دفعني إلى أن أضع نفسي مكان القاضي.. وببساطة.. فإن القاضي إذا نظر في جناية قتل متهم فيها شخص واحد بقتل شخص آخر، فلكي يصدر حكمًا عليه، فإنه يحتاج أولاً إلى أدلة قاطعة تثبت له ثبوتًا يقينيًا أن هذا تحديدًا قتل ذاك تحديدًا، وهذا ليس أمرًا يسيرًا، ويحتاج القاضي ثانيًا إلى ما يجعله أن يحدد تحديدًا قاطعًا إذا ما كان هذا القتل قد تم عمدًا مع سبق الإصرار، أم عمدًا دون سبق إصرار، أم كان قتلاً خطأ، أم دفاعًا عن النفس، فالفوارق بين كل منهم كبيرة في القانون.. وهذا عن قضية قتل واحدة متهم فيها شخص واحد بقتل شخص واحد

آخر.. فما بالك بكل هذه الهيصة؟! فكيف للقاضي أن يعرف من قتل من؟ ومن قتل ومن لم يقتل؟ ومن قتل عمدًا ومن قتل خطأ ومن قتل دفاعًا عن النفس؟ فبالتأكيد كل هذه الحالات كانت موجودة.. ولذا فإن التعامل مع ما حدث باعتباره مجموعة من قضايا القتل الجنائية العادية كان محض عبث وتضييع للوقت.

ولا أستطيع صراحة أن أفتي بما كان يجب أن يتم بالضبط.. ولكن ما تم كان تفريغًا لأحداث الثورة من كونها بأكملها جريمة سياسية كبيرة ارتكبها نظام حاكم في حق شعبه (مثل جرائم الحرب)، إلى مجموعة من قضايا القتل الجنائية المتناثرة وكأنها قضايا شخصية.. وبمعنى آخر فإن الهجوم على أقسام الشرطة في الأصل عمل غير شرعي، ولكنه تمت شرعنته في إطار الشرعية الثورية، أي أنه تم قبوله لأنه كان في إطار ثورة شعبية واسعة قام بها شعب ضد نظام حاكم قمعي بادره بالعنف، وإخراجه من هذا الإطار السياسي الكبير، ووضعه في أطر جنائية ضيقة وكأن الضباط والمتظاهرين كانوا مجموعة من الجيران بيتخانقوا مع بعض على موضوع شخصي، بعد تفريغًا له من معناه!

وحين وضعت نفسي مكان هؤلاء الضباط، تساءلت: هل كنت سأفعل مثلهم في مثل هذا الموقف.. أم أنني كنت سأفعل شيئًا آخر؟ ولو كنت سأفعل شيئًا آخر.. فما هو بالضبط؟! فحمدت الله أنني لم أكن مكانهم..

وأيًا كان فقد كانت قضية الأقسام تلك هي أحد الأسباب الرئيسية في ذلك العداء الشديد الذي حدث بين الضباط والثورة.. ولكنها لم تكن السبب الوحيد.

٦- العداء

كنت في بداية الثورة عندما أتحدث مع أحد الضباط (ولا سيما الشباب) عن أهمية الثورة بالنسبة إلينا، وأنها قامت بهدف إصلاح الفساد الذي نعانيه، كنت أجد آذانًا مصغية.. ولكن بعد فترة صُمّت تلك الآذان ولم تعد تسمع.. ويمكنك أن ترى هذا في ذلك المثال بوضوح:

عندما أمرت النيابة بحبس "حبيب العادلي" لأول مرة، رفض الضابط المرافق له (وكان ضابطًا صغيرًا برتبة ملازم أول) ركوبه سيارته الخاصة، وأصر على ركوبه البوكس، كما أصر على أن توضع القيود الحديدية في يده، وقيده بأحد جنود الدرجة الأولى، ووافقه أغلب الضباط وقتها على ما فعل وأشادوا به.. ولكن بعد فترة.. صرت أرى الضباط (هم أنفسهم) وهم يصنعون جدارًا بشريًا أمام قفص حبيب العادلي في المحكمة كي لا تراه أعين الناس!!

ففي البداية كان من الممكن ضم الكثير من الضباط إلى الثورة، وجعلهم يسيرون في ركبها.. ولكن هذا الممكن بعد فترة صار مستحيلًا، وبدا العداء بينهم وبين الثورة كما لو أنه عداء

شخصي.. ولهذا في رأيي عدة أسباب.

فبالإضافة إلى محاكمات ضباط الأقسام التي شعروا معها بالظلم، كان هناك كراهية إعلامية ومجتمعية لهم شعروا معها بأنهم منبوذون، ولذا فقد وجدوا الملاذ عند أعداء الثورة وأنصار النظام الذين قالوا لهم إن تلك ليست ثورة قام بها شعب مقهور وإنما مؤامرة عالمية ماسونية شريرة، وكان هذا التفسير أكثر راحة بالنسبة إليهم من مواجهة الحقيقة وهي أننا يجب أن نتغير، يجب أن نتغير حتى وإن كانت مؤامرة ماسونية شريرة، كما أن قياداتهم دأبت على الإلحاح عليهم بتلك الفكرة، وترسيخها في أذهانهم، لكي يتوجه غضبهم نحو الثورة بدلاً من توجهه نحوهم هم، ومن ثم نحو النظام.

السبب الثاني أنهم شعروا بأن الإعلام يذبحهم ويتجاهل مشاكلهم، ولكن وللحق فإن الكثير من الإعلاميين استضافوهم مرارًا لعرض وجهة نظرهم وعرض مشاكلهم ولكنهم هم في الحقيقة من فشلوا في عرضها.

السبب الثالث أن الكِبر المزروع في أنفسهم منذ الصغر والذي يجعلهم دون أن يشعروا يفترضون من المجتمع أن يعاملهم معاملة أرقى من الآخرين والذي يجعلهم يصفون المنافق بأنه راجل محترم، بينما يصفون من يقول الحقيقة بأنه قليل الأدب، أعماهم هذا الكبر عن رؤية مدى أهمية دماء الآخرين وكرامتهم، وصاروا لا يرون سوى دمائهم هم وكرامتهم هم.

السبب الرابع هو التعصب للانتماء الوظيفي الذي يجعلهم يدافعون عن زملائهم بالحق وبالباطل، غير مدركين أنهم بهذا الدفاع يضعون أنفسهم معهم في نفس الإطار، ثم تجدهم يغضبون بعد ذلك من الهجوم على الشرطة، ويقولون لك: "بلاش التعميم لو سمحت"!!

السبب الأخير (وهو الأهم في نظري) يتمثل في أن هذه الثورة في الأساس كما رأيت هي ثورة وعي، وأغلبهم (وخاصة الكبار) يعيشون منذ سنوات خارج إطار الوعي، تنتمي أمانيهم وطموحاتهم إلى أزمنة ولت، وليس إلى المستقبل! ولذا فقد كانوا أقرب للتفكير للخلف منهم للتفكير للأمام.

وقد كان عدم اعترافهم بالثورة هو السبب الرئيسي في فشلهم في الضغط الداخلي على النظام لإصلاح الجهاز.. فكيف يسير في ركب الثورة من لا يعترف بها أصلاً؟!

هذا عن الضباط الذين ليس لهم "لا في الطور ولا في الطحين"، والذين يحلو للبعض إطلاق لقب الشرفاء عليهم، وهم كثير، بل أستطيع أن أؤكد أنهم الأغلبية.. فما بالك بالآخرين؟

٧- القناصة

كانت هذه الثورة ولا تزال حافلة بالألغاز.. فبالإضافة إلى الألغاز الخاصة ببداية الثورة مثل فتح السجون، والهجوم على

الأقسام، ولغز المختفين (الذين كان من بينهم ثلاثة ضباط وفرد)، هناك ألغاز استمرت معنا بعدها مثل لغز "أين القناصة؟"، ولغز "الطرف الثالث".. وإن كنت تظن أنني أنا من سوف يحل لك هذه الألغاز.. فأنت ساذج.. إنها ألغاز لا يستطيع حلها المغامرون الخمسة أنفسهم.. ولكن ربما تحل هي لنا نفسها بنفسها مع الوقت.

ولكن اللغز الأهم في نظري من بين تلك الألغاز هو لغز: "أين القناصة؟؟".. وإذا ما تم حل هذا اللغز في يوم من الأيام ربما حل معه لغز الثورة الأكبر: "الطرف الثالث".

وهناك نظريتان بشأن موضوع القناصة.. وهما نفس النظريتين الخاصتين بفتح السجون.. النظرية الأولى تقول إنها القناصة التابعة للشرطة، والنظرية الثانية تقول بأنهم قناصة تابعون للإخوان وحركة حماس، وبالرغم من أن النظرية الأولى هي التي أيدها تقرير النيابة في قضية قتل المتظاهرين، وتعتبر بذلك هي النظرية الرسمية، إلا أن النظرية الثانية صارت هي النظرية الأكثر شعبية! وبالرغم من أنني أميل لتصديق النظرية الأولى فقط لأنها النظرية الأكثر منطقية وواقعية، إلا أنني مع ذلك لا أستطيع الجزم بخطأ الثانية.. وربما كانت إحداهما صحيحة في بعض الوقائع، والأخرى صحيحة في وقائع أخرى (وهو نفس ما ينطبق تقريبًا على لغز فتح السجون).

وعلى كل حال فالقناصة إذا كانوا من الداخلية فهم تابعون لجهة من اثنتين: قوات العمليات الخاصة التابعة للأمن المركزي، أو قوات مكافحة الإرهاب التابعة لأمن الدولة. ومكمن خطورة لغز القناصة هو أنهم سواء كانوا تابعين للعمليات الخاصة، أو مكافحة الإرهاب، أو حتى الإخوان وحركة حماس، فهم المسئولون في اعتقادي عن القتل الذي حدث في محيط ميدان التحرير في الأيام الأولى للثورة، والمسئولون كذلك عن غالبية القتل بالرصاص الحي الذي حدث في الأحداث التي تلتها وحتى الآن.. أما قوات الأمن المركزي العادية الموجودة على الأرض فتنحصر مسئوليتهم أغلب الوقت (حتى الآن) في إصابات الخرطوش وأي وفاة جاءت نتيجة لها.. هذا بالإضافة بالطبع لما يحدث في المواجهات المباشرة من سحل وضرب وإهانة للآدمية.

٨- الجندرمة

كان أول تأسيس للأمن المركزي في مصر على يد الاحتلال الإنجليزي، وكان يطلق عليه وقتها "قوات الجندرمة".. ويبدو أن الاحتلال وقتها أراد أن يقي قواته شر مواجهة الجماهير الغاضبة المطالبة بالحرية، فأنشأ قوات ذات طبيعة عسكرية من قوات الشرطة المصرية لكي تواجه الجماهير بدلاً من قواته (وأهم يبقوا مصريين في قلب بعض ياكش يولوعوا)، وهذا يعني أنه أنشئ في الأساس لمهمة سياسية بحتة، ويفلسفة احتلالية قمعية، وظل بعدها طوال الوقت يستخدم بنفس الفلسفة، ويقوم بنفس المهمة، وحتى الآن لا يعرف ضباطه وجنوده لهم مهمة أخرى غيرها..

ومن المفترض أن مهمة الأمن المركزي الرسمية هي فض الشغب، وتوجد مثله قوات لفض الشغب في أنحاء العالم المتحضر، ولكن في العالم المتحضر تدرب هذه القوات ذهنيًا وعمليًا بحيث تحمي حياة البشر قبل أي شيء، بمن فيهم مثيرو الشغب أنفسهم، ورأينا جميعًا في اليونان أغلب المباني الحكومية في العاصمة أثينا وهي تحترق دون أن تقتل قوات مكافحة الشغب هناك شخصًا واحدًا من المشاغبين، فإن حياة الإنسان هي أهم شيء في الدول التي تحترم مواطنيها.. أما نحن.. فأهم حاجة عندنا المنشآت!! فنحن شعب يعشق المنشآت منذ فجر التاريخ، حتى أنني مندهش، كيف لم يكن هناك إله للمنشآت في الديانة المصرية القديمة؟!

هذا ويعتمد الأمن المركزي في قوامه على المجندين بالأساس.. وعن المجندين.. فسوف أحكي فقط لك هذه القصة: ذات مرة.. حضرت أثناء عملي بالصعيد، احتفالية بمناسبة انتهاء فترة التدريب الأولي لمجندي قوات الأمن الجدد، وكان من بين الحضور: المحافظ ومدير الأمن ومساعد الوزير لمنطقة جنوب الصعيد ولفيف من القيادات والشخصيات الهامة.. وكان من فقرات الحفل بيان عملي لكيفية فض الشغب (زي بتاع كوريا كده)، فقسم العساكر إلى فريقين: فريق يعمل مظاهرة، وفريق يعمل أمن مركزي، وكان دور فريق المظاهرة أن يتقدم هاتفًا باتجاه الفريق الآخر، ويبدو أنه لم يحدد لهم أحد نوعية الهتاف بالضبط.. فما كان منهم إلا أن تقدموا جميعًا هاتفين في نفس واحد: "الصحافة فين.. التعريص أهه"!!

وبالرغم من هذا.. فإن الأمن المركزي كما قلت لك هو القوة الحقيقية للشرطة على الأرض، فإذا كانت وزارة الداخلية قبل الثورة يمكن أن تختصر في أمن الدولة والأمن المركزي، فإنها صارت بعد الثورة تتلخص في الأمن المركزي وحده، وقد رأيت كل من حكموا مصر بعد تنحي "مبارك" لا يهتمون في جهاز الشرطة سوى بالأمن المركزي فقط، أرادوه كما هو، بنفس وظيفته السياسية، فحاول المجلس العسكري استخدامه لكي لا يضطر للدفع بقواته في مواجهات جماهيرية، وفشل في ذلك، فقد كانت دماء الثورة لم تزل ساخنة بعد، مما دفعه لإقحام قواته في مواجهات دموية كارثية لن ينساها التاريخ، وأيضًا جاء من بعده الإخوان المسلمون فلم يهتموا فقط سوى بالأمن المركزي، لكي يحمي لهم قصر الاتحادية ومقراتهم المختلفة، وفشلوا هم أيضًا في البداية كذلك، مما دفعهم هم أيضًا للدفع بأعضاء جماعتهم للقيام بهذا الدور، فكانت كارثة وفضيحة كبرى، وبدا وكأنهم يدفعون البلاد إلى حرب أهلية، إلا أنهم نجحوا بعد ذلك في الاستعانة به نسبيًا بعد تغيير القيادة، كما أنهم لجأوا لإثارة شهوة الانتقام من الثورة لدى الضباط، ونجحوا في ذلك مع بعضهم.

كل هذا في حين أنه لو كان استخدم هذا الأمن المركزي بقواته الضخمة طوال هذه الفترة في العمل الجنائي، لما حدث انفلاتًا أمنيًا بهذه الصورة.. ولكن.. من الذي سوف يحمي السلطة؟؟

٩- العودة

- هو إنتو مش هاترجعوا بقى؟؟

- نرجع فين؟! نرجع إزاي يعني؟؟ نرجع زي ما كنا؟؟ أومال هي البلد دي قامت فيها ثورة ليه؟!!

كان هذا السؤال المستفز المحبط (والمعذور فيه الناس في الحقيقة)، أحد أهم أسباب استقالتي من وزارة الداخلية.. فالجميع يتحدثون عن عودة الداخلية بلا وعي.. وصاروا يهللون إذا ما رأوا كمينًا.. رغم أن هذا الكمين لا يستهدف سوى المواطن العادي. وصاروا يهللون إذا ما رأوا لجنة مرور.. رغم أن الهدف الوحيد من هذه اللجنة هو جمع الأموال من الشعب. وصاروا يهللون إذا ما رأوا حملة إزالة لإشغالات الطريق.. رغم أن هذه الحملات رغم أهميتها تقطع عيش فقراء ليس لديهم حل آخر لكسب الرزق، فتزيد بالتالي نسبة البطالة، وتزيد معها نسبة الجريمة بالتبعية!

إن وزراء الداخلية المتعاقبون لم تكن لديهم سوى نفس الحيل القديمة ونفس أساليب "حبيب العادلي" البالية.. غير منتبهين أن "حبيب العادلي" كان يعتمد فقط على الخوف.. أو غير منتبهين أن الخوف قد زال.. وانصب التركيز كله على محاولة إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه.. دون أي محاولة حقيقية أو جادة لإصلاح أي شيء.. وكان ما سمي بالتطهير عبارة عن تمثيلية، بل إنه اتُّخِذ غطاءً لتصفية الحسابات والتخلص ممن يعتبرونهم مشاغبين.. واهتموا جميعًا بالأمن المركزي تاركين الضباط والأفراد في الأمن

العام يواجهون ما لا قبل لهم به من الجريمة حتى صاروا يقتلون واحدًا تلو الآخر، وصاروا هم يستخدمون استشهادهم في الدعاية لأنفسهم، وازداد الأمر عبئًا على عبث.

وعلى هذا فإن أي حديث عن عودة الشرطة لهيبتها فهو محض هراء.. وخدوها مني.. إن الداخلية لن تعود كما كانت مرة أخرى.. فالشعوب إنما تحكم بأمر من اثنين: الخوف، أو القانون.. والخوف من السلطة قد زال إلى حد كبير من نفوس الناس وبخاصة الشباب (وهم المستقبل).. ولذا فأنا أعتقد أن هذا البلد لن يستقر ولن يأمن إلى أن يُحكم بالقانون.. ولن تكون هناك هيبة للشرطة فيه سوى بهيبة القانون.. أما أن تكون لها هيبة خاصة بها مثلما كان.. فلا أظن أن هذا سوف يحدث.

قال لي أحد زملائي بعد الثورة:

- هيبة الشرطة ضاعت خلاص.

- وهي كانت فين الهيبة دي؟؟ هو إحنا كان لينا هيبة غير على الغلابة؟؟ الهيبة الحقيقية للشرطة هاتبقى لما تعرف تطبق القانون على الوزير، زي ما بتطبقه على سواق الميكروباص.

١٠- الهيكلة

كثر الحديث بعد الثورة وكثر اللغط حول هيكلة الشرطة وحول إصلاحها وتطهيرها، ووضعت خطط كثيرة لذلك، بعضها جيد بالفعل وقابل للتنفيذ، لكن المشكلة ليست في الخطط، فإن

هذا البلد لن يعدم العقول على كل حال، ولو لزم الأمر يمكن الاستعانة بخبراء أجانب.. عادي مش عيب.. اشمعنى الكورة يعني؟!

ولكن أي خطة للإصلاح الجذري للشرطة تحتاج وقتًا لتنفيذها، وتحتاج فترة ليست بالقصيرة لكي تظهر آثارها.. والأمن في مصر الآن مسألة ملحة وتحتاج إلى حلول سريعة.. فإن أردت حلاً سريعًا.. فإنه يتلخص في أن يتم جمع كل قوات الشرطة الممكنة في مصر وبخاصة الأمن المركزي (بأي طريقة كانت ودون التقيد بالروتين) ووضعها جميعًا تحت قيادة شرطة النجدة، فيتم توزيعها جغرافيًا في شكل دوريات متحركة، مكثفة ومتقاربة، تجوب الشوارع والطرق، دون أن يطلب منهم مجهود، أي دون اشتباه أو توقيف أو تفتيش أو تلكيك أو أي غتاتة من أي نوع (فإن هذه أساليب قوات احتلال وليس قوات شرطة) فقط يتدخلون إذا ما رأوا من يرتكب جريمة، أو إذا ما وجدوا من يحتاج المساعدة، أو إذا ما استنجد بهم أحد، مباشرة أو عن طريق البلاغات.. فإن النجدة هي عمل الشرطة الأصلي.. وهي عملها الأول والأخير.. وهي ببساطة تعني أنك كمواطن عندما تشعر بالخطر.. أي خطر من أي نوع، في أي وقت، وفي أي مكان.. فتتصل بالنجدة.. فتقوم النجدة تلحقك.. أوليست هذه هي وظيفة الشرطة ببساطة؟؟

لكن هذا بالطبع حل مؤقت، لا يصلح للاستمرار، كما أنه لا

يخلو من العيوب.. فالإصلاح الجذري لا مفر منه في النهاية.. ولكن هذا هو الحل السريع الذي عندي.. ولو اهتم أحد بسؤال من هم على أرض الواقع، لربما وجد عندهم حلولاً أفضل.

ولكن المشكلة كما قلت ليست في خطط الإصلاح أو الهيكلة، ولا حتى في الحلول السريعة، المشكلة تكمن في عدم وجود إرادة سياسية حتى الآن ممن يحكمون البلاد لتنفيذ تلك الخطط والحلول.. ولن توجد تلك الإرادة السياسية طالما تحتاج السلطة إلى الشرطة لحمايتها.. وسوف تظل السلطة تحتاج الشرطة لحمايتها طالما هي في حالة عداء مع الشعب.. وستظل السلطة في حالة عداء مع الشعب ما لم تتحقق العدالة.. ولن تتحقق العدالة إلا بسيادة القانون على الجميع.. وبغير هذا فإن أي خطة للإصلاح أو التطهير أو الهيكلة سوف تكون خطة وهمية، ربما لن تعدو عن كونها مجرد غطاء آخر للمزيد من الإفساد.

أما إن وجدت تلك الإرادة السياسية.. فإن الإصلاح وقتها لن يكون صعبًا.

"العدالة هي الحل"

حافة الجنون

مشهد:
منزلي الخاص – ديسمبر ٢٠١١

صحوت من نومي على حركة غريبة في الحجرة.. فركت عينيَّ فتبينت شخصًا غريبًا يرتدي الزي التقليدي للصوص الأفلام القديمة (الفانلة المخططة)، واقفًا أمام الدولاب يعبث بمحتوياته.. فقمت مفزوعًا.. وفتحت الأباجورة زاعقًا فيه:

– إنت مين؟!!

فانخض وأسقط ما في يديه ملتفتًا إلي.. فصدمت أنا مما رأيته.. فقد كان هو.. هو بنفسه.. حبيب العادلي!!!

جرى مسرعًا خارج الغرفة.. بينما جمدتني الصدمة قليلاً مكاني.. ثم أفقت وغادرت الحجرة جريًا وراءه.. فاستوقفني صوت جهوري أجش قادم من الصالة زاعقًا:

– هاتووووه.. هاتوه الكلب ده.

أضأت نور الصالة.. ونظرت إلى مصدر الصوت فوجدته اللواء "زكي بدر" مرتديًا البيجاما!!

إيه ده؟!!.. إيه الجنان ده؟!!

ثم انتبهت للواء "حبيب العادلي" الذي يفتح باب الشقة هاربًا، فأكملت مطاردته.. نزل السلم فهممت أن ألاحقه إلا أنني فوجئت بعدد كبير من القوات المدججة بالسلاح تصعد السلم نحوي.. وفوجئت أنهم تركوه يهرب دون أن يعترضه أحد.. كما لاحظت أنهم لا يرتدون أي زي من أزياء الشرطة التقليدية.. أو حتى الجيش.. فقد كانوا أقرب للشبه بقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة!

خرج اللواء "زكي بدر" من باب الشقة زاعقًا:

- هاتووووووه.

ففوجئت بأنه يشير نحوي!! فصعدت السلم هاربًا إلى سطح المنزل.. وما إن وصلت.. حتى وجدت شخصًا مستلقيًا على وجهه، ممسكًا ببندقية طويلة، متخذًا وضعية القناصة.. فاقتربت منه في حذر.. لاحظت أنه يرتدي ملابس عادية، كما لاحظت أنه ضئيل الحجم، أشيب الشعر.. كان يبدو وكأنه شيخ طاعن في السن.. وحين شعر بوجودي التفت نحوي فوجدته اللواء "منصور العيسوي"!!.. فسألته مندهشًا:

- إيه يا باشا في إيه؟! إيه إللي سيادتك عامله ده؟!

فرد غاضبًا:

- شششش.. مش شغلك.. وبعدين إنت مش اتنيلت استقلت؟ غور بقى من وشي ماتقرفنيش.

فقلت مترددًا:

- حاضر.. تعليمات سيادتك.

فعاد لينظر مرة أخرى في منظار البندقية.. صمتُ برهة.. ثم عدت مرة أخرى لسؤاله:

- طب هو مش سيادتك قلت إن مفيش قناصة؟!

فنظر إليّ نظرة متوحشة قائلاً:

- أيوه مفيش قناصة.. من النهاردة أنا القناصة.. أنا القناصة.. نياهاهاهاها.

ثم قام بتصويب البندقية باتجاهي!!!

فقمت من النوم فزعًا لاهثًا.. وأخذت أردد متمتمًا:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

عسكر وحراميّة

في عام ١٩٧٢، في جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة، قام البروفيسور "فيليب زيمباردو" بتجربة مثيرة، أراد منها معرفة تأثير السجن على نفسية كل من السجانين والمساجين، فقام بإنشاء سجن صغير في قبو الجامعة يحاكي السجن الحقيقي، وقام بإعلان في الصحف يطلب مشاركين لتجربة علمية مقابل مبلغ مالي مجز، فتقدم له أكثر من ٧٠ شخصًا، قام بإجراء الفحوصات والاختبارات النفسية لهم، ثم اختار من بينهم ٢٤ شخصًا كانوا الأكثر سواءً والأقل عرضة للاضطراب النفسي.

قام بعد ذلك بتقسيمهم إلى مجموعتين عن طريق القرعة، مجموعة تقوم بدور السجانين، والأخرى تقوم بدور المساجين، وكانت المدة المقررة للتجربة أسبوعين، تقضيهما بالكامل مجموعة المساجين داخل السجن، بينما تعمل مجموعة السجانين على نوبات يعودون خلالها إلى بيوتهم.

وبينما ارتدت مجموعة السجانين زي الشرطة وتسلحت بالعصي، ارتدت مجموعة المساجين الزي التقليدي للسجن، وأعطى كل واحد منهم رقمًا بدلاً من اسمه، ثم وزعوا على الزنازين بعد أن طبق عليهم ما يطبق في السجن الحقيقي من إجراءات تفتيش ونظافة وخلافه.

ومع بداية التجربة، اجتمع البروفيسور "زيمباردو" مع مجموعة السجانين.. لم يحظر عليهم في هذا الاجتماع أي شيء باستثناء حظر استخدام العنف الجسدي مع المساجين، ولم يقدم لهم كذلك أي تعليمات تذكر باستثناء هذه العبارات:

"يمكنكم أن تولدوا إحساسًا بالخمول لدى السجناء، ودرجة ما من الخوف، من الممكن أن توحوا بشيء من التعسف يجعلهم يشعرون بأنكم وبأن النظام وبأننا جميعًا نسيطر على حياتهم، سوف لن تكون لهم خصوصيات ولا خلوات. سنسلبهم من شخصياتهم وفرديتهم بمختلف الطرق. بالنتيجة سيقود كل هذا إلى شعور بفقدان السيطرة من طرفهم، وبهذا الشكل سوف تكون لنا السلطة المطلقة، ولن تكون لهم أي سلطة".

وهكذا.. تركهم "زيمباردو" وفريقه في سجن جامعة ستانفورد، بعد أن وضعوا الكاميرات في أرجاء المكان لمراقبة وتسجيل ما يحدث.. وكانت النتائج غريبة!

ففي اليوم الثاني من بداية التجربة بدأت مجموعة السجانين في تقمص أدوارهم، وبدأت المعاملة السيئة شيئًا فشيئًا من جانبهم، مما دفع مجموعة المساجين للاعتراض والتمرد، فبدأ السجانون في فرض العقوبات عليهم، حتى أن بعضهم تطوع للعمل لساعات إضافية دون أن يطلب منهم ذلك، بدعوى إحكام السيطرة على السجن! وبدأت الممارسات السادية! بدأت أولاً بحرمان المعترضين على المعاملة السيئة من الطعام، ثم حرمانهم من دخول الحمام وإجبارهم على قضاء حاجتهم في الزنازن، ثم قاموا بعد ذلك بتجريد الزنازن من الفرش وإجبارهم على النوم على الأرض، ثم أجبروهم بعد ذلك على تنظيف الحمامات بأيديهم العارية دون أدوات أو مياه، ثم بعد ذلك قاموا بتجريدهم من ملابسهم وجعلهم عرايا تمامًا، وظلت الوتيرة تتصاعد حتى وصل بهم الأمر إلى التحرش والإذلال الجنسي! وهنا.. اضطر "زيمباردو" إلى إيقاف التجربة وإنهائها على الفور، قبل أن تتسبب في دخوله السجن فعليًا، فلك أن تتخيل ما كان يمكن أن يحدث إن تركهم لكي يكملوا الأسبوعين.. فكل ذلك قد حدث خلال ستة أيام فقط من بداية التجربة!!

(قال "زيمباردو" بعد ذلك أن واحدًا من كل ثلاثة من مجموعة السجانين أظهر ميولاً وسلوكيات سادية، والباقين اشتركوا بالفعل أو بالصمت!).

وبالرغم من أن هذه التجربة أثارت جدلاً واسعًا، ووجهت إليها

انتقادات حادة على المستوى الأخلاقي والعلمي معًا، إلا أن نتائجها المرعبة لا يمكن تغافلها أبدًا. فلك أن تتأمل: مجموعة من البشر العاديين، لا يعانون من اضطرابات نفسية تذكر، تم تقسيمهم عشوائيًا بالقرعة دون اختيار، ارتكبوا كل هذه الفظائع خلال أيام معدودة، بمجرد أن وضعت بأيديهم سلطة تجعلهم يتحكمون في بشر آخرين، بشر لم يرتكبوا شيئًا بحقهم سوى أنهم اعترضوا على المعاملة السيئة!! فما بالك إن كانت هذه السلطة لفترة طويلة، وما بالك إن كانت في إطار دولة بوليسية عتيقة تقدس السلطة وتربي أفرادها منذ الصغر على تقديسها، وما بالك إن أضيف لهذه السلطة بعد وطني في ذهن صاحبها.. أو بعد ديني؟!!

وعندما قرأت عن هذه التجربة مصادفة، دعمت فكرة كانت لدي مسبقًا وهي أن للسلطة شهوة.. وهي مثلها مثل أي شهوة تكابد صاحبها حتى تتحكم فيه وتفقده السيطرة على تصرفاته وسلوكياته، وهي شهوة مؤذية، بل مؤذية جدًا، إذ يمتد أذاها إلى المجتمع بأسره، حتى أنها يمكنها في مرحلة من المراحل أن تدمره كليًا.. لذا فلا يجب على المجتمع في المستقبل أن يسمح بأي طريقة كانت تحت أي ظرف أن توضع سلطة في يد أي شخص أو أي مجموعة من الأشخاص دون رقابة قانونية ومجتمعية صارمة وواضحة.. فالمشكلة في رأيي لم تكن من البداية في ضباط وأفراد الشرطة كأشخاص (فإنهم لا ينتقون مثلاً الأشرار من بين البشر لإلحاقهم بالشرطة)، ولكن المشكلة تكمن في النظام الذي يعملون

تحته.. فإنك لو استبدلتهم جميعًا بآخرين (أي آخرين) تحت نفس النظام السلطوي الذي يمنح السلطة للأشخاص وليس للقانون، فإنك بعد فترة سوف تجدهم وقد بدأوا في التصرفات السادية، حتى وإن كانت حدتها أقل، فإنها لن تختلف كثيرًا، وكلنا رأينا ما ارتكبه شباب الإخوان عند قصر الاتحادية في يوم ٥ ديسمبر ٢٠١٢ المشئوم.

النقطة الأخيرة التي قد تثيرها هذه التجربة، أن من يعملون في حقل الشرطة يجب أن يعرضوا بشكل دوري على الطب النفسي، ليس فقط لفرزهم، ولكن أيضًا للتخفيف من آثار ما يتعرضون له على سلوكياتهم وتصرفاتهم، وهذا هو ما يحدث في المجتمعات المتقدمة منذ زمن، وهذا هو ما يعتبر عيبًا كبيرًا في مجتمعنا بشكل عام، فما إن يذهب أي شخص للطبيب النفسي، حتى يعتبره المجتمع مجنونًا ومنبوذًا على الفور، وهذا في نظري أحد الأسباب الرئيسية التي أوصلتنا إلى هذا الجنون الذي نعيشه، ونمارسه جميعًا في هذه المرحلة.

الجانب الآخر

مشهد :
٢٢ نوفمبر ٢٠١١ - الساعة الواحدة صباحًا
شارع محمد محمود

هذه المرة تركت كل ما يشير إلى هويتي في السيارة، فأنا على كل حال كنت قد تخلصت من هويتي فعليًا قبل يومين، ونجحت لأول مرة في دخول الميدان منذ اندلاع الثورة.. كان أخي وأصدقاؤه في انتظاري، ورغم احتفائهم الشديد بي، ورغم أنني رأيت أخي يبتسم في وجهي بصدق لأول مرة ربما مذ كنا صغارًا.. كنت مرتبكًا بشدة، فلم يكن ذلك الشعور بالرهبة قد تركني بعد.

كان المشهد في شارع محمد محمود مخيفًا بحق، ومهيبًا في الوقت ذاته.. كان الظلام دامسًا، وضباب الغاز المسيل للدموع يملأ المكان.. والضوضاء تصم الآذان.. دوي الطلقات، ودوي الصياح، ودوي الصراخ، ودوي أبواق سيارات الإسعاف، ودوي الهتاف:

- يسقط يسقط حكم العسكر!

كنت أول مرة أسمع ذلك الهتاف.. فقد ظهرت قوات عسكرية في تلك الأحداث بصحبة قوات الأمن المركزي في مشاهد مؤسفة، كانت واضحة للعالم أجمع، وكان هذا ثاني ظهور لقوات من الجيش في مواجهات جماهيرية، كانت المرة الأولى في أحداث ماسبيرو، وكانت أحداثًا دموية مؤلمة بدورها.. وبدا وقتها أن شعار "الجيش والشعب إيد واحدة" يتبخر، وأن المشكلة لم تكن فقط في ثلاثين عام مبارك، وأنها ربما تمتد لتشمل ستين عامًا من الحكم العسكري.

اشتدت حدة الغاز المسيل للدموع.. وبدأ أثرها يظهر عليّ.. فأعطاني أخي كمامة لأرتديها، وشرع شخص لا أعرفه في رش سائل أبيض اللون في عيني.. وحين وجلت قال لي مطمئنًا:

- ماتخفش.. ده عشان الغاز.

وبالفعل أتى مفعوله.. عرفت بعد ذلك أنه نوع من أدوية الحموضة كان قد اكتشف الشباب أنه يعمل على إزالة أثر الغاز من العيون.. قال لي أخي صائحًا كي أستطيع سماعه في الضوضاء:

- تعال على جنب علشان فيه قناصة.

- إيه؟!!

- فيه قناصة فوق بينشنوا ع العيون.. تعالى على جنب.

انزوينا جانبًا أنا وهو وأصدقاؤه.. ووقفت أراقب المشهد مشدوها.. كان المكان يعج بالشباب من جميع الأشكال والأصناف.. أذهلتني بسالتهم وصمودهم وهم يواجهون بأيديهم العارية زملائي المسلحين.. زملائي الذين أعرف جيدًا أنهم الآن واقفون على الجانب الآخر ينفذون التعليمات بحماس وبلا وعي، يفكرون ربما في أنهم يقاتلون أعداء الوطن المتآمرين العملاء، أو ربما فقط يشبعون شهوة الانتقام بداخلهم.

فانتابني شعور مؤلم لا أستطيع وصفه!

كانت تخرج من آن لآخر مجموعة من وسط الضباب حاملين أحدهم مصابًا.. يعرجون به إلى شارع جانبي، حيث المستشفى الميداني.. فدخلت وراءهم إلى ذلك الشارع لأشاهد ما يحدث فيه.. فوجدت المصابين متراصين على جانب الطريق.. بعضهم إصابته بسيطة، والبعض كان يعاني من حالة تشنج عصبي قوية.. والبعض كانت تبدو إصابته خطيرة.. وكان هناك الكثير من الأطباء الشباب يعملون في حركة دءوب على إسعاف المصابين بإمكانيات شديدة البدائية.

تقلصت معدتي وشعرت بالغثيان! فخرجت مرة أخرى إلى شارع "محمد محمود". كانت وتيرة المعركة قد هدأت.. ورأيت الشباب ينسحبون تدريجيًا إلى الميدان.. وسمعتهم يرددون أن الأمن المركزي "هايريح شوية"!

انسحبت معهم إلى الميدان.. وجلست وسطهم أراقبهم وأتبادل معهم الحديث.. وأثارت دهشتي تلك الحالة من الهدوء النفسي الواضحة عليهم جميعًا.. وكأنهم لم يكونوا في خضم معركة شديدة الوطأة منذ قليل.. بعضهم بدأ في التسامر والتهريج، وبعضهم شرع في الغناء، وبعضهم شرع في الرسم، وبعضهم شرع في تناول البليلة! فتذكرت على الفور "كمان" "أمل دنقل" الذي يتحول إلى "كعوب بنادق"، وقلت لنفسي إنه ربما هنا يحدث العكس..

وما هي إلا دقائق قليلة إلا وقد غمرني هدوؤهم.

لم يكونوا بلطجية أو مأجورين أو منحرفين كما كان يصفهم الجالسون في بيوتهم.. كانوا شبابًا من الجنسين، ومع ذلك لم ألاحظ أي نوع من أنواع "العلاقات الجنسية" التي كانوا يتحدثون عنها.. كانوا من جميع الأعمار، ومن مختلف الفئات، ومن طبقات عدة.. بعضهم متعلم وبعضهم جاهل، بعضهم عاقل وبعضهم أهوج، بعضهم واع وبعضهم ساذج، بعضهم مثقف وبعضهم سطحي، بعضهم مؤمن وبعضهم ملحد.. كانوا ببساطة شباب مصر.. وكانوا متعاونين فيما بينهم متكاتفين، يتعاملون مع بعضهم البعض (بعكس الكبار) دون حواجز أو فوارق أو عقد.. وكانوا فقط يحلمون بغد أفضل للجميع.

بعد فترة استأنفت قوات الأمن المركزي المعركة مرة أخرى بإلقاء القنابل على الميدان من شارع "محمد محمود".. فبدأ

الشباب في العودة إلى هناك مرة أخرى لاستئناف المعركة. تلك المعركة التي بدا وقتها أنها لن تنتهي أبداً.

في تلك الليلة.. في شارع "محمد محمود".. مات الشرطي الذي أحمله بداخلي للأبد...

ملف المستقبل

يقول المتصوفة:

"من ذاق عرف.. ومن عرف.. ضل طريق الرجوع".

إن من آمنوا بهذه الثورة، هم فقط من ذاقوا طعم الحرية، ومن ذاق طعم الحرية مرة، فسوف تجد أنه لا يطيق أن يعود مرة أخرى إلى خانة الخوف والقهر والاستعباد، ولا يستطيع أن يفعل حتى وإن أراد! ولهذا فلو أنك ممن لم يؤمنوا بهذه الثورة، أو ممن شاركوا فيها اتباعًا أو بهدف الوصول للسلطة أو لتحقيق مكاسب شخصية فقط، فإنك بالتأكيد لا تفهم ما أعنيه.. ولا أستطيع في الواقع أن أصف لك كيف هو مذاق الحرية هذا، ولكنه بالتقريب حاجة كده زي "ماشربتش من نيلها"، أو "أصله ماعداش على مصر".. أما إن كنت ممن آمنوا بها، فإنك بالتأكيد تعي تمامًا ما أقول، هذا إن كنت ما زلت على قيد الحياة! وإن كنت ما زلت بكامل عقلك!

فقد لاقت هذه الثورة حربًا شرسة في كل مكان، هي وكل ما يمثلها وكل من آمن بها.. ومن يقوم بهذه الحرب (أيًا كان) لا يفهم أن من آمن بهذه الثورة لن يعود للخلف مرة أخرى، وأنه قد يفضل الموت على العودة إلى ما كان.. ولا يفهم من يحارب الثورة أنه بحربه تلك يضيع وقته ووقتنا ويضيع البلد كله معه، فهو قد استطاع أن يقنع نفسه أنه يفعل ذلك من أجل البلد أو من أجل الإسلام رغم أنه في واقع الأمر يفعل ما في مصلحته الشخصية، واستطاع أن يقنع نفسه أن الطرف الآخر الذي يخسر كل يوم ويدفع الثمن كل يوم هو الذي يريد أن يخرب البلد أو يريد أن يهدم الدين!

وهكذا بدأت الحرب تدريجيًا في وزارة الداخلية -مثل كل مكان- على كل من يرفضون العودة إلى القهر مرة أخرى، وكنت من ضمنهم، وكانت تلك الحرب تتم بأي دعوى ملفقة متهافتة كالعادة مثل "التأخير في المواعيد" أو "عدم الانتظام في العَمل"، فقد رفعوني من المباحث على سبيل المثال بدعوى "ضعف المجهود"، رغم أنه لم يكن هناك وقتها للوزارة بأكملها أي مجهود، بل لم يكن لها أي وجود على أرض الواقع من الأساس!

كما أنني وجدت زملائي وقد ابتلعوا طعم معاداة الثورة بسهولة بالغة، بمن فيهم أصدقائي العِشْرة رفقاء الطريق الذين أحبهم، وبمن فيهم أيضًا أولئك الذين يطلقون على أنفسهم لقب "الثورجية"! فكنت أراهم في الاجتماعات الأولى لما سمي بالائتلاف

العام لضباط الشرطة، يبحثون كيف يثورون على الوزارة وفي نفس الوقت يهاجمون الثورة! الثورة التي أعطتهم هذه الفرصة الذهبية!! كما أنني وجدت السلطوية تغلبهم والاختراقات تفرقهم فيأبى كل منهم إلا أن يكون زعيمًا، فلا يصلون بالتالي لنتيجة ولا يتفقون على شيء، فانقسموا إلى عدة مجموعات متفرقة: "ضباط من أجل الثورة"، "ضباط ضد الفساد"، "ضباط لكن شرفاء"، "ضباط لكن ظرفاء"!. كما وجدت أنهم ليس لديهم أي نية على الإطلاق للإصغاء لأي منطق، فتجد العاقل منهم لا يجد الفرصة للحديث، وإن وجد الفرصة فلا يجد من ينصت إليه.. كما وجدتهم يرفضون تمامًا أي انتقاد دون تفكير، وبالتالي لا تجد لديهم أي رد موضوعي على أي شيء، وكل ما لديهم كلام عن نباح الكلاب ولا تظن أن الأسد ميتًا (ده بيريح بس) والواجب الوطني والأعين الساهرة وإلى آخر كل هذه الكليشيهات الفارغة من المعنى.. فكان المشهد في منتهى العبث.. مما ضاعف من شعوري بالوحدة، وبالغربة، وبعدم انتمائي للكيان بأكمله من الأساس.

وهكذا تبين لي مبكرًا الطريق الذي نسير فيه، بل ويسير فيه البلد بأكمله، وهو طريق القضاء على الثورة، وعلى حلم التغيير والإصلاح نهائيًا، وإعادة النظام الذي سقط بأي ثمن، حتى ولو كان هذا الثمن من دماء الناس.. وبأي شكل كان، سواء في شكله السابق أو في شكل عسكري كلاسيكي أو في شكل ديني أو حتى في شكل الهنود الحمر.. فاتخذت قرارًا بأنه إذا كان النظام ينتوي أن يعود، فإنني لن أعود معه.. وإن كان زملائي قد أبوا أن

يفكروا، واستسلموا للأفكار الجاهزة الملقنة التي هي في الوقع ضد مصلحتهم، فإنني باستمراري بينهم سوف أفقد ما تبقى لي من عقلي.

فاستقلت...

ويومها، وفي طريق عودتي من وزارة الداخلية إلى منزلي، وجدت زوجتي تتصل بي لتطمئن وتستفسر عما يحدث عند وزارة الداخلية، فأجبتها بأنني لم أر شيئًا غير عادي! وعلمت بعد وصولي إلى المنزل أنني فور مغادرتي لوزارة الداخلية مستقيلًا، اندلعت تلك الأحداث التي أطلق عليها الإعلام اسم "أحداث محمد محمود".. نعم.. اندلعت أحداث "محمد محمود" فور استقالتي مباشرة، بعدها بدقائق! فشعرت وقتها بنفس ما شعر به الكابتن "حسن شحاتة" عندما استبدل ميدو بعمرو زكي فأحرز هدفًا في مباراة السنغال (أو الكونغو مش فاكر)، وقلت لنفسي إنها ربما إشارة أخرى من السماء.. لكي أكون داخلها بإشارة، وخارج منها بإشارة.. الفارق أن الأولى كانت حمراء.. ولكن سرعان ما تبدد ذلك الشعور وتحول إلى شعور بالأسى، عندما رأيت أرواح شباب مصر في تلك الأحداث وهي تزهق، وعيونهم وهي تفقع.

جلست بعدها أشاهد بمرارة ما توقعته يحدث.. بل إنه اتخذ في الواقع صورًا أسوأ مما توقعت بكثير!!

رأيت المزيد والمزيد والمزيد من الدماء.. رأيت من يموتون تضحيةً، ومن يموتون غدرًا، ومن يموتون يأسًا، ومن يموتون عبثًا.. ورأيت من يدافعون عن كل هذا القتل بدم بارد، بينما تتأذى مشاعرهم من الإهانة..

رأيت من يبررون جبنهم باتهام الشجعان، ومن يبررون أنانيتهم باتهام المضحِّين، ومن يبررون نفاقهم باتهام المخلصين، ومن يبررون خستهم باتهام النبلاء.. ومن يرددون وراءهم بلا عقل..

رأيت زملائي وقد صاروا يعانون من نفس ما يعاني منه الثوار، يقتلون واحدًا تلو الآخر دون حساب أو قصاص، بينما يتاجر آخرون بدمائهم لمصالحهم، وصراعهم السلطوي..

رأيت جيلاً يريد أن يأخذ زمنه وزمن غيره، فيرفض بشدة أن يترك مكانه لجيل آخر أذكى وأنظف، فيصر على قهرهم وإغلاق أبواب المستقبل تمامًا في وجوههم، فيدفع بهم إلى المزيد من العنف، والمزيد من العدوانية والتهور..

رأيت نظامًا يحاول العودة بشكله السيادي التقليدي الفاشل المستبد فيفشل، فيدفع مضطرًا بشكله الديني الأكثر فشلاً والأكثر استبدادًا، ورأيت كلاً من الفريقين (كعادتهما دائماً) يتحالفان تارة، ويتصارعان تارة أخرى، ولكنهما في جميع الأحوال لا يرون في

المشهد طوال الوقت سوى بعضهما البعض، وكأن هذا البلد ليس به شعب، وكأنه لا أهل له!! فيقول الفريق الأول إن تلك الثورة ما هي إلا مؤامرة قام بها الفريق الثاني (رغم وضوح فشله)، ويصدق الفريق الثاني هذا ويؤمن عليه (من فشله)، ويروج كلاهما معًا لنفس الفكرة اللئيمة، لإحباط الناس وإقناعهم بأنهم لم يفعلوا شيئًا ولا يستطيعون فعل أي شيء، ومن ثم إعادتهم للاستعباد مرة أخرى، فإن صحوة الشعب في الواقع خطر على كليهما، وانتصار الثورة معناه سقوطهما سويًا، فهما وجهان لنظام واحد، والصراع بينهما (الآن وطوال الوقت) في الحقيقة، لا يتعدى كونه صراعًا على السلطة داخل نفس النظام.

ولذا.. فبعد تفكير طويل.. قررت أنني طالما شرعت في تصحيح خطأ قديم عمره ستة عشر عامًا، فإنه يتعين عليَّ إصلاحه من جذوره.. فقررت استعادة حلمي القديم.. ولأنني أرفض أن تذهب سنوات عمري الماضية سدى، شرعت في أن أحكي لك ما حكيت.

فإنني حتى هذه اللحظة، وبعد مرور ما يقرب من عامين ونصف على بداية الثورة، وبعد مرور ما يقرب من عام على حكم الإخوان، ما زلت أرى النظام "رغم تغير أشخاصه" مستمرًا.. وكذلك أيضًا أرى الثورة.. ولكن النظام الآن قد صار متهالكًا.. والثورة صارت منهكة.. والشعب أصبح معها في خندق واحد شاء أم أبى، حتى وإن كرهها.. فإن النظام بعد أن فشل فريقه الأساسي في

البقاء، نزل بفريقه الاحتياطي: "الإخوان المسلمين".. وهو فريق بطبيعة الحال أفشل من الفريق الأساسي، وأكثر انعدامًا للكفاءة والرؤية والعقل.. بل هو في الواقع فريق مكسّح.. فبالتالي يكمل ما فعله سابقوه بهدم ما تبقى من البلد دون وعي.. يهدمه فوق رأسه ورءوس الجميع.. ويبدو لي الآن -والله أعلم- أن "عبد الرحمن الكواكبي" كان محقًا عندما قال:

"إن فناء دولة الاستبداد لا يصيب المستبدين وحدهم، بل يشمل الدمار الأرض والناس والديار، لأن دولة الاستبداد في مراحلها الأخيرة تضرب ضرب عشواء كثور هائج في مصنع فخار، فتحطم نفسها وأهلها وبلدها قبل أن تستسلم للزوال. وكأنما يستحق على الناس أن يدفعوا ثمن سكوتهم الطويل على القهر والذل والاستعباد".

فبات واضحًا لي أن الإخوان المسلمين ليسوا بداية دولة جديدة، بل هم أصلاً لا يعلمون معنى كلمة دولة.. هم فقط أحد تلك المراحل التي تكلم عنها "الكواكبي" في فناء دولة الاستبداد المنهارة.

ويعلم الله وحده إن كانت هذه هي آخر مرحلة، أم أنه ما زالت هناك مراحل أخرى؟ ويعلم الله وحده متى سوف نخرج من هذه الدائرة المفرغة المفزعة؟!

فملف المستقبل.. سري جدًا.. لا يعلم ما فيه غير الله.. وجل ما أعلمه.. هو أنني لست مضطرًا بعد الآن لقول تلك العبارة السخيفة المبتذلة:

"تعليمات سيادتك".

تمت

خاتمة

وهكذا..

انتهى الرائد "محمد محمود" من سرد قصته القصيرة الغريبة.. والتي قال إنه حكاها فقط كي لا يذهب ماضيه سدى.. ولو أنني لا أظنه يعلم بالضبط لماذا قد حكاها.. فقد كنت أرى في عينيه أثناء حكيه لي، كلاً من الحزن والخوف والحنين والنشوة والسعادة والندم والحيرة مجتمعين.. وكنت أجد في حديثه مزيجًا من اللذة والألم، ومزيجًا من الشفقة والغضب، ومزيجًا من اليأس والأمل، وتأرجحًا ما بين الرغبة في التشفي والرغبة في الإصلاح.. فلم أستطع أن أحدد لماذا شرع في أن يحكي ما حكى.

ولكن على كل حال.. فإنني أراه اليوم وقد أعطته الثورة تلك الهدية الثمينة التي اختصت بها محبيها دون غيرهم.. والتي ربما لم يحصلوا على سواها.. وهي إعادة النظر في الحياة وفي أنفسهم.. ودفعهم للبحث عن ذواتهم الضائعة في هذا العالم المجنون.. وهي هدية ثمينة لو تعلمون.. أثمن بكثير مما يكسب الكاسبون.. فأتمنى أن أكون قد استطعت مساعدته.

المؤلف

القاهرة – مايو ٢٠١٣

"دولت العزب، أحمد عاشور، حسام شكري، دينا ماهر،
خالد مصطفى، دنيا كمال، معتز الشافعى.. وعمرو حسني"

شكرًا جزيلاً

فهرس

مدخل	١١
مقدمة	١٥
رجل المستحيل	١٧
بعد إذن شاويش العنبر	٢٣
العادلي أساس الملك	٣١
دفتر إيصالات	٣٧
الإدارة العامة للجباية	٤٥
فهمي	٥١
الذين هبطوا بالباراشوت	٥٥
بلبيس	٦١
جينز وكوتشي	٦٩
بلبيس ٢	٧٥
شر الطريق	٨١
نيابة	٨٥
تعليمات سيادتك	٨٩

الواقفون على الطريق	٩٥
هي فوضى	٩٩
خيال المآتة	١٠٥
في انتظار المرور	١١١
القصرية	١١٥
حدث في عيد الشرطة	١٢١
حافة الجنون	١٤١
عسكر وحراميّة	١٤٥
الجانب الآخر	١٥١
ملف المستقبل	١٥٧
خاتمة	١٦٥

صعدت السلم هارباً إلى سطح المنزل.. وما أن وصلت.. حتى وجدت شخصاً مستلقياً على وجهه، ممسكاً ببندقية طويلة، متخذاً وضعية القناصة.. فاقتربت منه في حذر.. لاحظت أنه يرتدي ملابس عادية، كما لاحظت أنه ضئيل الحجم، أشيب الشعر.. كان يبدو وكأنه شيخ طاعن في السن.. وحين شعر بوجودي التفت نحوي فوجدته اللواء «منصور العيسوي»!!!..

فسألته مندهشاً:

– إيه يا باشا في إيه؟!.. إيه إللي سيادتك عامله ده؟!

فرد غاضباً:

– ششششش.. مش شغلك.. وبعدين إنت مش إتنيلت استقلت؟.. غور بقى من وشي ماتقرفنيش

فقلت متردداً:

– حاضر.. تعليمات سيادتك

ميريت

الجرافيتي الكبير: تصوير أحمد الليثي من على جدران ميدان التحرير، القاهرة. الجرافيتي الصغير: من أعمال أهل الكهف، تونس